شركة دار
رسالة البيان
للنشر والتوزيع
Resalat Albayan
for publication and distribution
١٣

التفاؤل في زمن الكروب

تلمس لأهم سمات منهج القرآن الكريم في عرض موضوع التفاؤل

د. عبد الله بن محمد العسكر

www.albayan.co.uk

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

ح دار رسالة البيان للنشر والتوزيع، ١٤٣٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العسكر، عبد الله محمد عبد الله

التفاؤل في زمن الكروب: تلمُّسٌ لأهمّ سمات منهج القرآن الكريم في عرض موضوع التفاؤل . / عبد الله بن محمد عبد الله العسكر - الرياض، ١٤٣٩هـ

ص ١١٢؛ ١٤×٢١ سم

ردمك: ٨-٦-٩٠٦٥٩-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - مباحث عامة ٢- التفاؤل

أ. العنوان

ديوي ٢٢٩,٤١٥ ١٤٣٩/٢٠٤٧

رقم الإيداع: ١٤٣٩/٢٠٤٧

ردمك: ٨-٦-٩٠٦٥٩-٦٠٣-٩٧٨

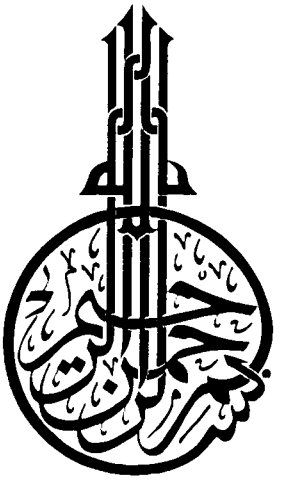
بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيّ بعده، وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فإن القرآن الكريم هو النبراس الذي يضيء الدروب المظلمة، والمشعل الذي يجلِّي غياهب السبل الموحشة. ومهما جلّت المصائب وعظمت الكوارث فإن في كتاب الله ما يُحيلها إلى برد وسلام؛ لأنه نزل من لدن حكيم خبير، فهو تعالى العالم بحال خلقه وما يُصلح شؤونَهم.

إن التخبط الذي نلحظه اليوم في حياة البشرية ما هو إلا نتيجة حتمية لتنحية القرآن عن دور الريادة والقيادة.

فالغرب مثلاً بما يمتلكه من إمكانات ضخمة وحضارة هائلة هو اليوم يعاني من أزمات أخلاقية وأمراض نفسية لا تخفى على أدنى متابع!

لذلك كان لزاماً علينا أن نسرع الفيئة إلى كتاب الله ونهتدي بهديه، لأنه السبيل الوحيد لتقويم المعوجّ وإصلاح الحال.

ولما كانت الدنيا مجبولة على الأكدار، مفطورةً على التنغيص، والمرء فيها يعتريه ما يعتريه من الهموم والأحزان بسبب هذه

المكدرات؛ لما كان ذلك كذلك؛ جاء القرآن ليأخذ بيد المؤمن إلى سبيل النجاة وشاطئ الأمان بما فيه من آيات تحيي في نفسه الأمل، وتبعث في قلبه قرب الفَرَج، وأن الخير آتٍ ولو بعد حين!

ومن هنا جاء هذا البحث محاولة لإيضاح منهج القرآن في طرح موضوع التفاؤل، وتلمُّساً لآياته التي تبعث في النفوس المكلومة والقلوب المحبَطة باعثَ الأمل الذي يحيل الأتراح إلى أفراح، ويجلِّي حكم الله في كل نازلة بما يُطَمئِنُ قلب المؤمن، ويجعلُه مسلِّماً لأمر الله، راضياً تمام الرضا عن ربه ومولاه، متيقناً أتم اليقين أن الخير فيما قضاه الله وكتبه.

وسوف نستعرض - بحول الله- بعضاً من الآيات في كتاب الله التي تدعو إلى التفاؤل، وترشد إلى المنهج الصحيح الذي يجب أن يكون عليه المؤمن في أوقات الأزمات، سوء أكان ذلك على المستوى الشخصي أم على مستوى الأمة.

والهيكل العام لهذه الدراسة سيكون ابتداء بالحديث عن معنى التفاؤل ومشروعيته وأهميته، ثم يكون التركيز بعد ذلك على صلب موضوع الدراسة، وهو الحديث عن أسلوب القرآن في تربية النفوس على التفاؤل، ويندرج تحت هذا المبحث المطلبان الآتيان:

المطلب الأول: إيراد نماذج من تفاؤل الصالحين.

المطلب الثاني: إشاعة التفاؤل في وقت الأزمات والمعضلات، وذلك من خلال الفروع الآتية:

الفرع الأول: التفاؤل بالنصر على أعداء الأمة.

الفرع الثاني: التفاؤل في حال الفقر وضيق العيش.

الفرع الثالث: التفاؤل عند فقد الأولاد وموتهم.

الفرع الرابع: التفاؤل عند عدم الوفاق الزوجي.

الفرع الخامس: التفاؤل بمغفرة الله، وعدم اليأس من رحمته.

والله المسؤول وحده أن يأخذ بأيدينا إلى ما فيه الخير لنا في أمور دنيانا وأُخرانا، ويملأ قلوبنا أنساً بكتابه، وتسليماً لأمره، ويقيناً بموعوده.

كما أسأله تعالى أن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، والحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم وبارك على النبي الكريم وآله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول

معنى التفاؤل ومشروعيته وأهميته

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: معنى التفاؤل.

المطلب الثاني: مشروعية التفاؤل .

المطلب الثالث: أهمية التفاؤل.

المطلب الأول: معنى التفاؤل

وفيه فرعان:

الفرع الأول: معنى التفاؤل في اللغة.

الفرع الثاني: معنى التفاؤل في الاصطلاح.

الفرع الأول: معنى التفاؤل في اللغة:

التفاؤل مصدر للفعل (تَفَاءَلَ)، يقال: تَفاءَلتُ به، وتَفأّلتُ به[1].

والتفاؤل صيغة (تفاعُل)، وهذه الصيغة لها أكثر من دلالة، وهي هنا تعني التظاهر بالفعل دون حقيقته، وهو التكلّف في الفعل[2].

والتفاؤل من حيث المعنى العام هو الفأل، وجمعه: فؤول، وأفؤل[3]. والمراد به: قول أو فعل يستبشر به.

والتفاؤل ضدُّ التشاؤم، كما أن الفأل ضد الطِّيَرَة. وهذا هو الغالب في معناه، وقد يطلق الفأل على ما لا يحب المرء، فيقال: لا فأل عليك، بمعنى: لا ضير عليك، ولا شرَّ عليك[4].

---

(١) لسان العرب لابن منظور ١١/ ٥١٣، تاج العروس للزبيدي ٣٠/ ١٤٢، (مادة فأل).

(٢) شذا العَرف ص٣٤.

(٣) المحكم لابن سيده ١٠/ ٤٠٥، القاموس المحيط للفيروزآبادي ص١٣٤٥، المعجم الوسيط (مجمع اللغة العربية) ٢/ ٦٧١، (مادة فأل).

(٤) لسان العرب ١١/ ٥١٣، القاموس المحيط ص١٣٤٥، المصباح المنير للفيومي ٢/ ٦٦٤، (مادة فأل).

الفرع الثاني: معنى التفاؤل في الاصطلاح:

تعددت التعريفات لمفهوم التفاؤل حسب نظرة كل باحث حول هذا الموضوع[1]، ومن أحسن ما وقفت عليه من تلك التعريفات ما ذكره الأستاذ عبد المعطي مخيمر؛ حيث عرف التفاؤل بأنه: «صفة تجعل توقعات الفرد وتوجهاته إيجابية نحو الحياة بصفة عامة، يستبشر الخير فيها؛ ويستمتع بالحاضر، ويحدوه الأمل في مستقبل أكثر إشراقاً، وأحسن حالاً»[2].

(١) انظر مقالاً بعنوان: (التفاؤل والتشاؤم: مفهومها وأسبابها) للدكتورة فضيلة عرفات على الشبكة العنكبوتية:

www.alnoor.se/default.sap.

(٢) السابق.

المطلب الثاني: مشروعية التفاؤل

لما كان التفاؤل صفة إيجابية وخلقاً كريماً جاء الإسلام ليعزِّز هذه الصفة ويؤكد عليها؛ وذلك أن النبي ﷺ أخبر أنه إنما بعث ليتمم مكارم الأخلاق[1].

وقد كانت العرب قديماً يتشاءمون أو يتفاءلون بالطير إذا أرادوا سفراً، فإن طار يمنةً سافروا، وإن طار يسرةً رجعوا!

وربما تطيروا بالأحجار وكتبوا عليها كتابات مثل (افعل، لاتفعل!)، وبنوا عليها ما يُستقبَل من أمرهم. وكل هذه من هرطقات الجاهلية التي كانت سائدة عندهم قبل الإسلام.

عن عكرمة رحمه الله قال: كنت عند ابن عباس فمرَّ طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خير خير، فقال ابن عباس: ما عند هذا خيرٌ ولا شرّ![2].

وكان عقلاء العرب ينكرون ذلك، ومنهم الشاعر لبيد بن ربيعة حيث يقول:

---

(١) ثبت ذلك في حديث أبي هريرة بلفظ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق». رواه الإمام أحمد في المسند ١٤/ ٥١٣ رقم (٨٩٥٢)، والبخاري في الأدب المفرد ١/ ١٠٤ رقم (٢٧٣)، والبيهقي في شعب الإيمان ١٠/ ٣٥٢ رقم (٧٦٠٩)، وصحح إسناده ابن عبد البر في التمهيد ٢٤/ ٣٣٣، والعلجوني في كشف الخفاء ١/ ٢١١، والألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٤٣ رقم (٤٤).

(٢) تفسير القرطبي ٧/ ٢٦٦، روح البيان للبورسوي ٣/ ١٦٤.

لعمرك ما تدري الضواربُ بالحصى

ولا زاجراتُ الطير ما اللهُ صانعُ[1].

وحين نتأمل نصوص السنة النبوية نجد أحاديث كثيرة مروية عن النبي ﷺ تحث على التفاؤل، وتحذر من التشاؤم والتطيُّر. ومما جاء في هذا الباب:

١) عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل». قالوا: وما الفأل؟ قال: «كلمة طيبة»[2].

٢) عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ سمع كلمةً فأعجبته، فقال: «أخذنا فألنا من فيك»[3].

٣) عن أنس بن مالك ﷺ قال: كان النبي ﷺ يعجبه إذا خرج لحاجة أن يسمع: يا راشد، يا نجيح![4].

---

(١) ديوان لبيد ص٥٧، الشعر والشعراء لابن قتيبة صـ٢٧٩، لسان العرب ١٠/ ٢١٥ مادة (طرق).

(٢) رواه البخاري ٧/ ١٣٩ رقم (٥٧٧٦)، ومسلم (٤/ ١٤٧٦ رقم (٢٢٢٤).

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند ١٥/ ١٦ رقم (٩٠٣٩)، وأبو داود ٦/ ١٠ رقم (٣٩١٧)، والبيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٣٩٩ رقم (١١٢٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢/ ٢٢٥ رقم (٧٢٦).

(٤) رواه الترمذي ٤/ ١٦١ رقم (١٦١٦) وقال: حديث حسن غريب صحيح، والطبراني في المعجم الصغير ١/ ٣٣١ رقم (٥٤٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ٨٩٠ رقم (٤٩٧٨).

وقال ابن عون عن ابن سيرين: كانوا يستحبّون الفأل، ويكرهون الطِّيَرة[1].

٤) عن بريدة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان لا يتطيّر من شيء، وكان إذا بعث عاملاً يسأل عن اسمه، فإذا أعجبه فرح به، ورئي بشر ذلك في وجهه، وإن كره اسمه رئي كراهة ذلك في وجهه. وإذا دخل قرية سأل عن اسمها فإن أعجبه اسمها فرح بها ورئي ذلك في وجهه، وإن كره اسمها رئي كراهية ذلك في وجهه[2].

٥) عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ غيَّر اسم (عاصية) وقال: «أنتِ جميلة»[3].

والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وكلّها تؤكّد عناية الشريعة بجانب الفأل، والتحذير من التشاؤم والتطيُّر، وكل ذلك له أثره البالغ في حياة الفرد والمجتمع ،كما سنذكر في المطلب القادم بحول الله.

وههنا ملحظ ينبغي الانتباه إليه، وهو أن التفاؤل الذي دعت إليه الشريعة وأقرّته هو ما يبعث على الهمة، وينشر العزيمة، ويولد

(١) الاستذكار لابن عبد البر ٨/ ٥١٣.
(٢) رواه أبو داود ٦/ ٦٢ رقم (٣٩٢٠)، وحسن إسناده ابن حجر في فتح الباري ١٠/ ٢١٥، والقسطلاني في إرشاد الساري ٨/ ٣٩٨.
(٣) رواه مسلم ٣/ ١٦٨٦ رقم (٢١٣٩).

الحماسة في النفس لمزيد من العمل والعطاء، وليس معناه التواكل وترك الأسباب بحجة إحسان الظن بالله، فهذا لون، وما نتحدث عنه لون آخر، وهو الذي يتناغم مع مبادئ الشريعة وقيمها النبيلة.

المطلب الثالث: أهمية التفاؤل

التفاؤل كلمة جميلة، ومعنىً يضفي على النفس البهجة والسرور.

ولا شك أن للتفاؤل أهمية بالغة في حياة الفرد والجماعة، ولهذا جاء الشرع -كما سبق- بالتأكيد عليه الأمر بالتخلق به.

ومتى ما كان المرء متفائلاً، وشاع التفاؤل في أفراد الأمة؛ فاعلم حينها أن الخير تتوالى بشائره، وأن السعادة قد ضربت بجرانها في تلك الربوع.

ومما يدل على أهمية التفاؤل ما يأتي:

١) أنه علامة على الثقة بالله تعالى:

ذاكم أن المتفائل يؤمن بأن الله قادر على كل شيء، وأنه لا يريد لعبده المؤمن إلا الخير، وأن يده سحَّاءُ الليلَ والنهارَ لم تغِضها نفقةٌ منذ أن خلق السماوات والأرض[١]. وأنه تعالى أراد منا أن ندعوه، وأن نحسن الظن به كما قال جل شأنه في الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني»[٢]، وكل ذلك مراعاة لحسن الظن والتفاؤل بمستقبل واعد. أما من قطع صلته بربه؛ فما هو والفأل

(١) ثبت ذلك في صحيح البخاري ٦/ ٧٣ حديث رقم (٤٦٨٤) من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: «يد الله ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، وقال: أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض فإنه لم يغض ما في يده».

(٢) رواه البخاري ٩/ ١٢١ رقم (٧٤٠٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الحسن؟! إنه يتعامل مع معطيات الواقع بنظرة مادية صرفة، ويحسب حساباته، ويقرأ الواقع - والمستقبل كما يزعم!- بناء على ما يراه ماثلاً بين عينيه!

فأمثال هؤلاء يسقطون من عين الله، ويخلي الله بينهم وبين ما تعلقوا به، فتكون العواقب، وخيمة والنهايات مفجعة!

أين أرباب القوة والسلطان، والمتعة والعمران ممن سلف في غابر التاريخ، كقوم عاد وثمود وأصحاب الأيكة؟!

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ (الفجر: ٦ - ١٤).

ولذلك فقد كان النبي ﷺ شديد التعلق بربه، عظيم الرجاء وحسن الظن به، متبرئاً من حوله وقوته، وكان يدعو فيقول: «ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين»[1].

٢) ومما يدل على أهمية الفأل أنه يهب المرء قوة وشجاعة في قلبه، ويجعله جسوراً على مواجهة الصعاب والعقبات، وهذه

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى ٩/ ٢١٢ رقم (١٠٣٣٠)، وعمل اليوم والليلة ١/ ٣٠٤ رقم (٣٤٢) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب ١/ ١٦٠رقم (٦٦١).

ثمرة ناتجة عن الثمرة الأولى وهي الثقة بالله؛ فمن كان الله معه وعوناً له فممَّن يخاف؟! ومن كان متفائلاً بنصر الله له وتأييده إيّاه فهل سيخيفه بشر، أو يسوؤه قدر؟!

لأجل ذلك كان أولياء الله المتعلقون به، المحسنون الظن به؛ لا يخافون أحداً من البشر مهما عظمت قوته ولجَّ في طغيانه!

هذا الخليل إبراهيم لما هدّده قومه وتوعَّدُوه بالنار ردَّ عليهم بلسان المؤمن الواثق بنصر الله: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (الأنعام: ٨٠).

ونبيُّ الله هودٌ عليه السلام يعلنها بتحدٍّ صارخ وشجاعة نادرة، فيصيح في قومه: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (هود: ٥٤-٥٦)

وأما صفوة الخلق وسيدهم وإمامهم محمد ﷺ فقد كان مضرب المثل في الشجاعة وجسارة القلب؛ وما ذاك إلا لحسن ظنه بربه وثقته التامة به.

يقول عليٌّ ﷺ - وهو الهزبر الصنديد-: «كنَّا إذا حمي الوطيس واشتد البأس واحمرَّت الحِدَق؛ اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحدٌ

أقربَ إلى العدو منه، وكان أشجعُنا مَن كان أقربَ إليه!»[1].

ولهذا كان عليٌّ ﷺ يقتفي أثر رسوله ﷺ في هذا المسلك، فكان شجاعاً صنديداً يهابه الرجال الأشاوس، يقدم على الحرب بشجاعة منقطعة النظير، فيقول:

أيَّ يـومَـيَّ مـن الـمـوت أفـرْ
يـومَ لا يُـقـدَر أم يـومَ قُـدِرْ؟
يـومَ لا يُـقـدَر لا أرهـبُـهُ
ومن المقدورِ لا ينجو الحذِرْ![2]

٣) ومما يدل على أهمية التفاؤل في حياة الإنسان أنه يروِّح عن النفس، ويجلب السعادة للقلب؛ فالمرء حين يكون متفائلاً بعواقب الأمور، مؤمِّلاً بحسن الحال وانقشاع الغمّة يكون في حال سرور وحبور، وترقب للخير وتمام النعمة. وهذا الشعور يبعث في النفس أريحية، وفي القلب انشراحاً وطمأنينة.

أعـلِّـل النفسَ بـالآمـال أرقبُها
ما أضيقَ العيشَ لولا فسحةُ الأملِ[3]

(١) حدائق الأنوار ومطالع الأسرار لابن عمر الحضرمي، ص ٤٣٦.
(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه ١/ ٩٦، نفح الطيب لابن المقري التلمساني ٥/ ٢٥٩.
(٣) البيت للطغرائي في لاميته الشهيرة، انظر: خزانة الأدب لعبدالقادر البغدادي ١/ ١٨٧، الكشكول لابن حسين العاملي ١/ ٣٠٢.

أما من يغلِّب جانب الخوف من المستقبل، ويفترض السوء في قابل الأيام؛ فهو يحكم على نفسه بالتعاسة والشقاء قبل حدوثها!

إن النفس بطبيعتها تحب سماع الحسن من القول، ورؤية الجميل من مباهج الحياة حتى ولو لم يكن في المقدور تغييرُ الواقع؛ ولذلك جاء وصفُ بقرة بني إسرائيل بأنها صفراءُ فاقعٌ لونها تسرّ الناظرين، فهي تسرهم وإن لم تكن لهم! فما أحوجنا إلى هذا الفهم! لتصفو به حياتنا، ويحلوَ به عيشنا.

٤) التفاؤل يبعث في المرء مزيداً من النشاط والحيوية والهمة العالية؛ فيفكر ويبدع ويبني، لأنه يترقب نتائج حسنةً لعمله.

فالتاجر حين يخطط لمشروع تجاري فإن الذي يحدوه للإقدام على هذا الأمر هو التفاؤل بالربح الوفير؛ وإلا لما كان مقدماً على ذلك!

والداعية إلى الله حين يطمع في هداية الخلق وإصلاح المعوج؛ فهو يزداد حماسة ونشاطاً في دعوته كلما كان أمله ورجاؤه في هدايتهم أكبر!

والطالب حين يُقدم على امتحان؛ فإنه إن كان متفائلاً بسهولة الأسئلة أو بقدرته - بعد توفيق الله - على حلّ ما سيواجه؛ فإنه سيكون بذلك أكثر تركيزاً وقت الامتحان، وأكثر قدرة على الحل من ذلك الذي افترض صعوبة الأسئلة، وتوقَّع الفشلَ في أدائه!

وقلِّب بصرك أنّى شئت فستجد جُلَّ؛ بل كلَّ الناجحين والعظماء أولي نفوس متفائلة!

٥) وللتفاؤل أثر عجيب في أداء العبادة:

فالمتفائل برحمة الله له، المحسنُ الظنَّ بربه؛ يدفعه ذلك لأداء العبادة على الوجه الأكمل، لأنه يرجو الخير من ربه في دنياه وأخراه. فلولا أنه يطمع أن يكون من ساكني جنة الله - وهذا نوع من التفاؤل- لما أَدأبَ نفسه وقام الليالي مصلّياً، وصام الهواجر صابراً محتسباً!

لذلك تأمل معي هذه الآية الكريمة: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٩﴾ ﴾، ثم ماذا؟ ﴿ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾! (الزمر: ٩).

إنه التفاؤل إذاً برحمة الله وعفوه ومغفرته. وإذا كان المؤمن بهذا الشعور الإيماني فإنه سينشط في العبادة، ويؤديها بخشوع وخضوع ودأَب؛ ذلك لأنه مرتاح النفس، مطمئن القلب.

أما حين يكون مهموماً حزيناً فإنه لا يؤدي العبادة كما ينبغي؛ بل تراه يتثاقل في أدائها، وذلك أن النفس قد أصابها الهمود والفتور!

لهذا كله استعاذ النبيّ ﷺ من الحَزَن[1] لما يخلِّفه من أثر سيئ على نفس الإنسان، وهذا أمر مشاهَد محسوس!

(١) ورد ذلك في حديث أنس بن مالك ﷺ، كما في صحيح البخاري ٤/ ٣٦ رقم (٢٨٩٣).

٦) ومما يدل على أهمية التفاؤل أن له تأثيراً بالغاً في صحة الإنسان!

ولعل هذا الأمر فرع عن سابقه، فالنفس متى ما كانت مرتاحة؛ فالجسد خادم لها لا يكلّ ولا يملّ؛ لذا ترى المريض حين يسمع من الطبيب أنه مقبل على تحسُّن في صحته، وأن نتائج التحاليل تبشر بخير ونحو ذلك من المبشرات؛ فإنه يصبح في حال أحسن مما كان قبل ذلك!

وعكس ذلك صحيح أيضاً، فلو خُوِّف المريض من مرضه، أو ذُكِر له أن نتائج التحاليل لم تكن جيدة فسينعكس ذلك لا محالة على حالته الصحية.

فتوقُّع المكروه وسماعُ ما يُحزن يؤثر سلباً على حال الإنسان، وفي المقابل فإن سماع ما يسر، ورؤية ما يبهج، وتوقّع الخير له أثر لا يخفى على صحة الإنسان وقوته.

مرض الحبيب فزرتُه
فمرضتُ من خوفي عليهِ
وأتى الحبيب يزورني
فبرئت من نظري إليهِ![1]

(١) ينسب البيتان للإمام الشافعي كما في: قوت القلوب لأبي طالب المكي ٢/ ٣٨٠، إحياء علوم الدين للغزالي ٢/ ١٨٨.

ولذا فإن الإسلام ربَّانا على اختيار الألفاظ الحسنة، وبثِّ روح الفأل عند عيادتنا للمرضى، فلا ينبغي أن يسمعوا منا إلا ما يبشر بخير، وقدرُ الله نافذٌ في كل حال.

وكان من هديه ﷺ حين يزور المريض أن يدعو له فيقول: «لا بأس، طهور إن شاء الله»[1].

وما أكثرَ جهلَ الناس بهذا المعنى الأخلاقي الجميل! وكم جنى الزائرُ على المزور!

يقول سفيان الثوري - رحمه الله: «لُحمق العُوَّاد أشدُّ على المرضى من أمراضهم!»[2].

ودخل رجل على عمر بن عبدالعزيز يعوده في مرضه فسأله عن علته. فلما أخبره قال: مِن هذه العلة مات فلان، ومات فلان! فقال له عمر: إذا عُدتَ المرضى فلا تنعَ إليهم الموتى، وإذا خرجت عنا فلا تعد إلينا![3].

وكم من مريض عِلَّتُه في طريقة تفكيره، واستدعائه لأحزانه وهمومه، وتخوّفه من القادم!

---

(١) رواه البخاري ٤/ ٢٠٢ رقم (٣٦١٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) العقد الفريد ٢/ ٢٨٤.
(٣) السابق ٢/ ٢٨٤.

يقول الدكتور جوزيف مونتاجي: «قرحة المعدة لا تأتي مما تأكله، ولكنها تأتي مما يأكلك!»[1].

وقد أكدت أبحاث طبية ودراسات أجراها باحثون في صحة الإنسان مدى تأثير التفاؤل والتشاؤم على صحة الإنسان سلباً وإيجاباً.

ففي دراسة أجرتها الدكتورة ترودي تشالدر من كلية توماس الطبية في لندن على مرضى في الإرهاق المزمن ثبت دور التفاؤل في التخفيف من حدة الأعراض التي يعانون منها. وقد قامت الباحثة بتنظيم اثنتي عشرة جلسة للعلاج بالسلوك الإدراكي تضمنت جميعها تحفيز المرضى على التفكير إيجابياً إزاء حالاتهم، وبعد ستة أشهر انخفض مستوى التعب، وتعززت قدراتهم على أداء مهامهم في حياتهم!

وفي دراسة قام بها اختصاصيٌّ من مستشفى بلندن أكد في ضوئها أن النساء المصابات بسرطان الثدي اللواتي يتحلَّين بالروح الدفاعية غالباً ما يعشن لفترات أطول؛ مقارنة مع غيرهن من المصابات ممن يسيطر عليهن اليأس أو التشاؤم، أو توقع الموت في أية لحظة![2].

---

(١) انظر موقع: دار الولاية للثقافة والإعلام على الشبكة العنكبوتية
alweayah.net

(٢) انظر على الشبكة العنكبوتية موقع: منظمة الحريات للتواصل بين موظفي قطاع العدل بالمغرب.
http://alhoriyatmaroc.worldgoo.com/t1166-topi

وبهذا يُعلم أن للتفاؤل أهمية كبرى في حياتنا، فهو يصبغ الحياة بألوان زاهية بديعة تفيض بالسرور على قلوبنا، وتخفف من غُلَواء المصائب والبلاء الذي لا بدَّ من وقوعه لأنه من جملة سنن الله تعالى في خلقه. أما التشكّي والتذمرُ وتوقُّعُ الشر فيما تأتي به الأيام؛ فهو جالب للكآبة، باعث للأحزان!

يقول إيليا أبو ماضي في هذا المعنى:

أيـهـا الـشـاكـي ومـا بـك داءٌ
كيف تـغـدو إذا غـدوت عليلا
إن شر الجناة في الأرض نفسٌ
تتوقى قبل الـرحـيـلِ الرحيلا
وتـرى الشوك في الـورود وتعمى
أن تـرى فوقها الـنـدى إكليلا
هـو عـبءٌ على الـحـيـاة ثقيلٌ
مَـن يـظـن الـحـيـاة عـبـئـاً ثقيلا
والـذي نـفـسـه بـغـيـر جـمـال
لا يرى في الوجود شيئاً جميلا![1]

(١) ديوان إيليا أبو ماضي، ص٦٠٤.

ومهما يكن من شيء فلا بدّ من إشاعة الأمل والتفاؤل في حياتنا حتى ولو لم تتحقق كل أمنياتنا وجميع رغائبنا. فالعيش بالتفاؤل، وانتظار الجميل في قابل الأيام والليالي؛ متعة ولذة بغض النظر عن النتائج!

أَمـانـيَّ من ليلى حِساناً كأنما
سقتني بها ليلى على ظمأٍ بردا
مُنىً إن تكن حقّاً تكن أحسن المنى
وإلا فقد عشنا بها زمناً رغـدا[1]

(١) البيتان لابن ميادة. انظر: الكشكول ١/ ٣٣٢، زهر الآداب ١/ ٣٢٥.

المبحث الثاني

أسلوب القرآن في تربية النفوس على التفاؤل

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: إيراد نماذج من تفاؤل الصالحين.

المطلب الثاني: إشاعة التفاؤل في وقت الأزمات والمعضلات.

أنزل الله كتابه الكريم ليكون نبراساً لكل تائه، وهداية لكل ضال، فمن سار وَفق توجيهاته سعد، ومن أعرض عنه خسر وشقي.

وما أحوج البشرية اليوم - وهي تتخبط في ظلمات التيه - إلى هداية القرآن! التي فيها صلاح الدين والدنيا ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء: ٩).

والتفاؤل - كما سلف - منهجٌ قرآني في إصلاح الفرد والجماعة، وحريٌّ بنا - ونحن نتلمّس هدايات القرآن- أن نتعرّف على أسلوب القرآن في طرح هذا الموضوع المهمّ، لنقتبس من نوره شعلة تضيء لنا الطريق، وتهدينا سواء الصراط.

ويمكن لنا أن نحدِّد مسار الحديث عن أسلوب القرآن في تربية النفوس على التفاؤل ليكون على النحو الآتي:

المطلب الأول: إيراد نماذج من تفاؤل الصالحين

يزخر القرآن الكريم بنماذج لصفوة عباد الله الذين كان التفاؤل منهجاً لهم في حياتهم في أحلك الظروف، وأشد ساعات البلاء، وكيف أن الله كان عند ظنهم به، فلم يخذلهم، ولم يقطعْ رجاءهم، ويخيِّبْ آمالهم.

انظر إلى نبي الله موسى عليه السلام لما هرب من فرعون بعد أن قَتل بالخطأ ذلك القبطيَّ، فتآمر عليه الملأ من قوم فرعون، فتوجه حينها إلى أرض مدين، ولم يكن معه طعام ولا كساء، ولا يدري إلى أين يذهب؟ فلا أحد يعرفه، ولا صديق يؤانسه، ولا بيت يأوي إليه، فالمعطَيات كلُّها لا توحي بما يسر، ومع ذلك كان يحسن الظن بربه، ويتفاءل بحسن تدبير الله له، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾(القصص: ٢١ - ٢٢). فهو حين خرج من مصر لم يكن يدري إلى أين يذهب؛ لكنَّه أمَّلَ في الله أن يهديه إلى السبيل الصحيح والطريق الذي تكون به نجاته.

ثم لما أتى أهل مدين، وسقى للمرأتين في الخبر الذي قصه القرآن لنا كان الجوع قد بلغ به مبلغه! حتى إنه ذُكِر في بعض الأخبار أنه أكل ورق الشجرة التي كانت عند ماء مدين!

قال ابن عباس ﷺ: «سار موسى من مصر إلى مدين حتى سقطت نعلُ قدمه، وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه، وإن بطنه لاصقٌ بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة!»[1]

نبيّ الله، وأحد أولي العزم، ويأكل ورق الشجر!

قال ابن مسعود ﷺ: «حششتُ على جمل ليلتين حتى صبَّحت مدين، فسألت عن الشجرة التي آوى إليها موسى، فإذا شجرةٌ خضراءُ ترفٌ، فأهوى إليها جملي وكان جائعاً، فأخذها فعالجها ساعة ثم لفظها! فدعوت الله لموسى عليه السلام ثم انصرفت!»[2].

وفي خضم هذا البلاء المتتابع على هذا النبي الصالح يظهر عظيم الرجاء والأمل في الله في قوله: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾(القصص: ٢٤).

اعتصامٌ بالله، وأملٌ في غوثه وخيره، فما هو إلا قليل حتى بدأت الفتوحات عليه تتوالى فآواه ربّه، وأطعمه، وأنكحه إحدى المرأتين الصالحتين، وعاش سنين عديدة في رغد وعيش طيب!

ومع موسى عليه السلام أيضاً في موقف عظيم يتجلى فيه عظيم

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٢٧.
(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٥٥٦، تفسير ابن كثير ٦/ ٢٢٧.

الفأل، وحسن الظن بالله، في ساعة يطيش فيها عقل الحليم، ويذهل فيها اللبيب الحكيم!

إنها الساعة التي وقف فيها عليه السلام أمام البحر بعد أن فرّ بدينه هو وبنو إسرائيل متوجهاً تلقاء البحر، فلما قارب البحر إذا بفرعون يتبعه بجيش قوامه يزيد على مليون جندي![1].

وتأتي ساعة الصفر، البحر أمام موسى، وعدوُّه من خلفه بجيش جرار. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾(الشعراء: ٦١)، أي: تقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه[2]، وبلغت القلوب الحناجر، عندها ساء ظن بني إسرائيل في ربهم، وانقطع أملهم، لأنهم لا يملكون روحاً كروح موسى عليه السلام، تلك الروح الواثقة بربها، المطمئنة إلى موعوده ونصره، التي لا تلجئها الكروب والمحن إلى اليأس والقنوط، وأما موسى عليه السلام فقال بلسان فصيح، وقلب مملوء باليقين والفأل الحسن بالله: ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾(الشعراء: ٦٢).

إنه الإيمان الراسخ الذي لا تزلزله الرياح العاتية، ولا الأمواج المضطربة!

وما هي إلا لحظات فإذا بالفرج يأتي سريعاً: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (الشعراء: ٦٣).

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ١٢٣، تفسير القرطبي ١/ ٣٨٩.
(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٣٥٥،تفسير البغوي ٣/ ٤٦٨.

من كان يظن أن البحر الخضم سيصبح طريقاً يبساً تطؤه الأقدام؟!

إنه صدق موعود الله لمن أحسن الظن به، وأعظم الرجاء فيه.

وهذا سيد المتفائلين محمد ﷺ في أشدِّ الساعات حرجاً تراه باسم الثغر، واثقاً من ربه، متفائلاً بالخير من مولاه.

وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقفٍ
كأنك في جفن الـردى وهو نائمُ
تمرّ بك الأبطال كَلْمى هزيمةً
ووجهك وضّـاحٌ وثغرك باسمُ![1]

لقد مرت برسول الله ﷺ مواقف كثيرة في حياته كانت شديدة الوطء على قلبه، بعضها ذكره الله في القرآن - وهو موضوع حديثنا- وكثير منها في صحيح السنة الشريفة. وكان ﷺ في كل تلك الأحداث الأنموذج البشري الأسمى في التفاؤل وحسن الظن بالله!

حكى الله عنه ثقته بربه وثباته العجيب في حادثة الهجرة الشهيرة حين كان في الغار هو وصاحبه الصديق ﷺ، وقد وصل الكفار إلى حيث الغار، حتى إن أبا بكر قال لرسول الله ﷺ: «يا رسول الله! لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا!».

(١) البيتان للمتنبي، انظرهما في ديوانه ٣/ ٣٧٨ .

فالخطب إذن جلل، والعدو قاب قوسين أو أدنى منهما، فيأتي جوابُ الواثقِ المتفائل: «يا أبا بكر! ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!»[1]. ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: ٤٠).

أجل! من كان الله معه فكيف يحزن؟!

إن هذه الكلمة التي قالها رسول الله ﷺ لأبي بكر: (إن الله معنا) هي ذاتها التي قالها أخوه موسى عليه السلام فيما ذكرناه آنفاً: (إن معي ربي سيهدين). فاستشعار العبد لمعية الله له يجعله أكثر تفاؤلاً، وأشد اطمئناناً في أوقات الأزمات والكروب.

ولما حاصرت قريشٌ رسولَ الله ﷺ في بيته وتمالؤوا على قتله، وانتدبوا من كل قبيلة فارساً شجاعاً ليكون قتله على يد هؤلاء جميعاً فيتفرق دمه بين القبائل - بأبي هو وأمي- وكان هذا المكر من قريش مكراً كُبَّاراً، ولكنَّ اللهَ مَكَر بهم من حيث لا يشعرون، فخرج ﷺ من بين أيديهم واثق الخطى، مطمئن القلب، متفائلاً بمآلات الأمور، فأخذ حفنة من تراب - وقد طمس الله أبصارهم - فجعل يذرّها على رؤوسهم، وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾(يس: ٩)، وبقوا على حالهم تلك، وقد جلَّلتهم المهانةُ والذلة، وهم لا يدرون عن الذي حلّ بهم

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٢٥٩، الكشف والبيان للثعلبي ٥/ ٤٧، تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٢.

حتى خرج عليهم بعد ذلك خارجٌ من الدار، فقال: ما لكم؟ قالوا: ننتظر محمداً. قال: قد خرج عليكم فما منكم من رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً، ثم ذهب لحاجته! فجعل كلٌّ منهم ينفض ما على رأسه من التراب[1].

ولم يقتصر القرآن على إيراد نماذج للمتفائلين من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ بل تعدى ذلك إلى عباد الله الصالحين الذين تربّوا في مدارس هؤلاء الأنبياء الأطهار، وأخذوا عنهم حسن الظن بالله، وتفويض الأمور إليه.

يذكر لنا القرآن الكريم خبر آسيةَ زوجةِ فرعونَ الطاغية، تلك المرأة الصالحة التي آمنت بربها، وصبرت على آذى فرعون وتعذيبه صبرَ الجبال الرواسي حتى ضرب الله بها المثل في القرآن للمؤمنين ليقتدوا بها، ويأتسوا بصبرها ويقينها، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (التحريم: ١١).

وما يهمنا في خبر هذه المرأة الصالحة ما نحن بصدد الحديث عنه في جانب الفأل وحسن الظن بالله؛ فقد كتب الله تعالى أن يعيش نبيُّ الله موسى عليه السلام في كنف عدوِّه الطاغية فرعون، وله تعالى الحكمة البالغة في كل ما قدره.

---

(١) تفسير القرطبي ١٠/ ٢٧٠، تفسير ابن كثير ٦/ ٦٤.

لقد أوحى الله إلى البحر وهو من جنده تعالى أن يقذف بذلك الطفل الرضيع موسى إلى قصر فرعون، فلما أُتي به إلى فرعون أراد قتله خشية أن يكون زوال ملكه على يده؛ لأنه قد اتخذ في ذلك العام سياسة قتل المواليد الذكور؛ وذلك أن الكهنة قد أخبروه بأن ملكه سيزول على يد رجل من بني إسرائيل يولد في ذلك العام!

فلما همَّ بقتله قالت امرأة فرعون: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (القصص: ٩)، فقال فرعون: أما لكِ فنعم، وأما لي فلا![1].

تأمل إلى الفارق بين هاتين النفسين: نفسِ هذه المرأة المؤمّلةِ الخيرَ، المتفائلةِ بحصوله، ونفس فرعون المجبولةِ على النزق وسوء الظن بالله تعالى. وقد كان لكل منهما ما قال!

أما زوجة فرعون فقد كان قرة عين لها وسبباً لفوزها ببيت في الجنة بجوار الرحمن كما قال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (التحريم: ١١). وأيُّ قرة عين أعظم من ذلك؟!

---

(١) تفسير الطبري ١٩/ ٥٢٤، الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ٨/ ٥٤٩٢، تفسير ابن كثير ٦/ ٢٢٢.

وأما فرعون فقد كان موسى له على عكس ما كان لزوجته، فقد زلزل اللهُ ملكه، ومزَّق شمله، وكان موسى سببَ ذلك بعد تقدير الله وتدبيره.

فالكلمة الحسنة المتفائلة قد تكون سبباً لحصول الخير للإنسان، والعكس أيضا صحيح! ولهذا قيل: «البلاء موكل بالمنطق»[1].

وما الذي كان يضرّ فرعون لو قال: قرة عين لي؟! ولكن النفس المتشائمة تأبى أن تخرج عن طبعها!

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لو أنه قال: وهو قرة عين إذاً لآمن به، ولكنه أبى!»[2].

ونموذج آخر للمتفائلين حكاه لنا القرآن عن أصحاب رسول الله ﷺ الذين تربوا على عينه، ونهلوا من معينه، فكانوا متفائلين بنصر الله لهم وتأييده وعنايته.

فبعد أن أصاب المسلمين ما أصابهم في غزوة أحد تواعدوا مع المشركين في حرب قادمة من العام التالي لغزوة أحد، فلما دنا وقت

---

(١) ويروى عن رسول الله ﷺ ولا يصح، رواه القضاعي في مسند الشهاب ١/ ١٦٢ عن علي ﷺ، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١٣/ ٢٨٠ من طريقه عن أبي الدرداء ﷺ، والحديث ضعيف كما قال ابن الجوزي في الموضوعات ٣/ ٨٣ وانظر أيضاً: تنزيه الشريعة ٢/ ٢٩٦، اللآلئ المصنوعة ٢/ ٢٤٩، السلسلة الضعيفة ٧/ ٣٩٦.

(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٥٢٥.

القتال خرجوا لملاقاة عدوّهم، فخوّفهم بعض المشركين من عدد وعتاد عدوهم وقالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[1] (آل عمران: ١٧٣).

نعم لقد زادهم ذلك إيماناً وتفاؤلاً بربهم وحسن ظنٍّ به، فكان جوابهم رغم الجراح التي أصابتهم في أحد والقرح الذي مسهم فيها: (حسبنا الله ونعم الوكيل!).

إنه منطق المؤمن حين يشتد به الكرب وتحدق به الشرور، فالله هو حسيبه وكافيه من كل مكروه.

ويتكرر المشهد في غزوة الأحزاب حين تواطأت جموع الكافرين على رسول الله ﷺ وأصحابه، واشتد البلاء وعظم الكرب، فكان الحال كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (الأحزاب: ١٠ -١١).

وفي هذه الأثناء كان رسول الله ﷺ يبثُّ الأمل في نفوس أصحابه، ويذكرهم بوعد الله لأوليائه، فكان يعدهم بزوال ملك كسرى وقيصر على يد المسلمين فضلاً عن جموع قريش الخاسرة!

(١) تفسير الطبري ٧/ ٤١٠، كشف البيان ٣/ ٢١٠.

عن البراء بن عازب ﷺ قال: لما أمرنا رسول الله ﷺ أن نحفر الخندق عرض لنا صخرة لا تأخذ فيها المعاول، فاشتكينا ذلك لرسول الله ﷺ فجاء رسول الله ﷺ فألقى ثوبَه وأخذ المِعول، وقال: «باسم الله»، فضرب ضربة فكسر ثلث الصخرة، ثم قال: «الله أكبر! أُعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمراء الآن من مكاني هذا»! ثم ضرب أخرى وقال: «باسم الله» فكسر ثلثاً آخر، ثم قال: «الله أكبر! أُعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض!» ثم ضرب الثالثة، وقال: «باسم الله» فقطع الحجر، وقال: «الله أكبر! أُعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر باب صنعاء!»[1].

وأمام هذه المبشّرات التي كان رسول الله ﷺ يبثها في قلوب المؤمنين كان المنافقون يسخرون ويشيعون قالة السوء ليوهنوا قوة المسلمين كما هو حالهم في كل زمان ومكان، ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ (الأحزاب: ١٢). وكان قائلهم يقول: محمد يعدُنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط![2].

---

(١) رواه ابن أبي شيبه في المصنف ٧/ ٣٧٨ رقم (٣٦٨٢٠)، والإمام أحمد في مسنده ٣٠/ ٦٢٥ رقم (١٨٦٩٤) وأبويعلى في مصنفه ٣/ ٢٤٤ رقم (١٦٨٥)، وإسناده حسن كما قال ابن حجر في الفتح ٧/ ٣٩٧، والحديث أصله في صحيح البخاري لكن بغير هذه الرواية، انظر: ٥/ ١٠٨ رقم (٤١٠١).

(٢) تفسير الطبري ٢/ ٢٢٣، تفسير ابن كثير ٦/ ٣٨٨.

أما المؤمنون من أصحاب رسول الله ﷺ فكانوا على ضد ذلك، فقد فهموا الدرس جيدا واقتدوا بنبيهم عليه الصلاة والسلام في حاله وقتَ المحنة حين يكون متفائلاً بنصر الله وإعزاز دينه، فكانوا كما حكى الله عنهم ذلك في كتابه: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٢٢).

الله أكبر! ما زادهم البلاء إلا إيماناً بربهم وبصادق وعده لهم، وتسليماً لأمره، وانقياداً لحكمه لأنه تعالى مَن يدبر الأمور، ويصيِّر الأقدار.

وكانت العاقبة لهم جزاء حسن ظنهم بربهم، فنصرهم الله وخذل عدوهم ورجعوا أذلة صاغرين: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ (الأحزاب: ٢٥).

أجل! إنه القوي العزيز فلم الخوف إذن؟! ولم التشاؤم والجزع؟! والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: (حسبنا الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟

﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[1] (آل عمران: ١٧٣).

والله لا يخيّب من أناخ ببابه ولاذ بجنابه، لهذا كانت العاقبة حميدة، ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (آل عمران: ١٧٤).

عن ابن جريج قال: «لما عبىّ[2] النبي ﷺ لموعد أبي سفيان، فجعلوا يَلْقَون المشركين ويسألون عن قريش فيقولون: «قد جمعوا لكم» يكيدونهم بذلك، يريدون أن يرعبوهم فيقول المؤمنون: (حسبنا الله ونعم الوكيل) حتى قدموا بدراً، فوجدوا أسواقها عافية لم ينازعهم فيها أحد!»[3].

(١) تفسير البغوي ٢/ ١٣٨، تفسير ابن كثير ٢/ ١٦٩.
(٢) (عبىّ) بمعنى: هيأ وأعدَّ. انظر: القاموس المحيط ص١٣٠٦، المعجم الوسيط ٢/ ٥٨١.
(٣) تفسير الطبري ٧/ ٤١١.

المطلب الثاني: إشاعة التفاؤل في وقت الأزمات والمعضلات

تمرّ بالفرد والأمة أزمات وشدائد تحار فيها العقول، ويُذهَل المرء وقتها فلا يدري ما يصنع؛ نظراً لشدة وطء المصيبة وأليم وخزها. وهنا لابدّ من يدٍ حانية تأخذ بيد ذلك المبتلى، وتشيع في قلبه عدم اليأس والقنوط، بل تطمعه في أن هناك مستقبلاً واعداً ينتظره بعد هذه الكربة والمحنة التي ألـمَّت به.

وهذا ما انتهجه القرآن الكريم في كثير من آياته العظيمة، التي تزرع الأمل، وتبشر بالخير وحسن العاقبة لمن أصابهم البلاء ومسهم القرح.

وقد شمل هذا المنهج القرآني الفريد جميع جوانب الحياة، على المستوى الفردي، وعلى مستوى الأمة بمجموعها.

ويمكن أن نتحدث عن هذا الجانب من خلال الفروع الآتية:

الفرع الأول: التفاؤل في حال تكالب الأعداء على الأمة وقلة المعين:

ويكون ذلك من خلال الأساليب الآتية:

١) **التفاؤل بقرب النصر على الأعداء:**

إن الأمة الإسلامية تعيش اليوم مرحلة متردية من الضعف والهوان لم تبلغها في تاريخها كُلِّه! تواطأت عليها قوى الغرب والشرق، وساموا أهلها ألوان العذاب وأصناف الهوان!

وها هي أعدادٌ من بلدان المسلمين تُستباح حرماتها، وتنتهب خيراتها، وتدنس مقدساتها ولا مغيث ولا مجيب! ولا تكاد العين تلمح بقعة من بلاد المسلمين إلا وفيها جرح غائر، ودمع سكيب!

وأمام هذه القوى التي تداعت على أمتنا وما تملكه من ترسانة حربية ضخمة ومكرٍ كُبَّار أفسدوا به بلاد المسلمين، وفرَّقوا به بين شعوبها، وأثاروا التطاحن والتقاتل بين أبناء الملة الواحدة، ولا حول ولا قوة إلا بالله، أمام ذلك كلِّه أصيب كثير من المسلمين بالإحباط واليأس، وشكَّ أقوام في موعود الله ونصره، فهُزموا في نفوسهم قبل أن يُهزموا في ميدان المعركة، وتلك أشدّ أنواع الهزيمة!

وأكبر سبب لحصول هذه الهزيمة في داخل النفوس وحصول هذا الإحباط واليأس هو البعد عن هدايات القرآن الكريم، التي لو سِرْنا وَفقها لتبدَّل الحال، وانزاح الظلام.

ومن تأمل آيات القرآن وجد كثيراً منها تزرع الأمل في النفوس، وتقوي اليقين بموعود الله ونصره وتمكينه لعباده.

فالله تعالى وَعَد - وهو لا يخلف الميعاد- أن العاقبة لجنده، وأن نهاية المعركة محسومة لأوليائه وإن انتفش الباطل وأرعد! يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾(الصافات: ١٧١ - ١٧٣). وقال: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(الروم:٤٧) وقال أيضاً: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾(غافر: ٥١).

وَوَعْدُ الله لا يمكن أن يُخْلَفَ، ذلك أن من يُخلِف وعده إما كاذب أو عاجز، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فكلامه صدق: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ ﴾(النساء: ١٢٢). وقدرته فوق ما تتخيله العقول وتتصوره الأذهان. قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (الزمر: ٦٧).

إن وعَدَ الله لعباده بالنصر والتمكين آتٍ وإن طال الزمن! فلئن استبطأ الناسُ نصر الله فهو قريب، إلا أنه لابدَّ من سنة التمحيص والابتلاء: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾(الأنفال: ٣٧)، ولكن النصر هو نهاية المطاف، لا شك في ذلك ولا ريب! يقول جلّ في علاه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾(البقرة: ٢١٤).

قال سيد قطب - رحمه الله- حول هذه الآية: «إن سؤالهم: (متى نصر الله؟) ليصوِّر مدى المحنة التي تُزلزِل مثل هذه القلوب الموصولة. ولن تكون إلا محنةً فوق الوصف، تلقي ظلالها على مثل هاتيك القلوب، فتبعث منها ذلك السؤال المكروب: (متى نصر الله؟).

وعندما تثبت القلوب على مثل هذه المحنة المزلزلة؛ عندئذ تتم كلمة الله، ويجيء النصر من الله: (ألا إن نصر الله قريب).

إنه مُدَّخَرٌ لمن يستحقونه. ولن يستحقه إلا الذين يثبتون حتى النهاية. الذين يثبتون على البأساء والضراء. الذين يصمدون للزلزلة. الذين لا يحنون رؤوسهم للعاصفة. الذين يستيقنون أن لا نصر إلا نصر الله، وعندما يشاء الله. وحتى حين تبلغ المحنة ذروتها، فهم

يتطلعون فحسب إلى (نصر الله)، لا إلى أيّ حل آخر، ولا إلى أي نصر لا يجيء من عند الله، ولا نصر إلا من عند الله.

بهذا يدخل المؤمنون الجنة، مستحقين لها، جديرين بها، بعد الجهاد والامتحان، والصبر والثبات، والتجرد لله وحده، والشعور به وحده، وإغفال كل ما سواه وكل من سواه»[1].

إن العلماء والدعاة إلى الله حين يحثون الناس على الرجوع لدينهم، والاستمساك بكتاب ربهم؛ فذلك لأن هذا هو شرط النصر الموعود من قبل الله، فإذا عاد الناس وساروا على ما سار عليه أسلافهم؛ فالنصر أقرب إلى أحدهم من شراك نعله!

لهذا لما قام الإمام ابن تيمية - رحمه الله - يحث الناس على حرب المغول، ويبث الأمل فيهم بالنصر على عدوٍّ بلغ خوفُ المسلمين منه أمراً يطول له العجب[2]، فكان - رحمه الله -يقول بلسان المؤمن الواثق: «أقسم بالله إنكم لمنصورون!»، فكان بعض الأمراء يقول له: قل: إن شاء الله، فيقول: «إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً!»[3].

إنه التفاؤل الذي ملأ جنبات هذا الإمام المجاهد!

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ١٩٧.

(٢) انظر لأمثلة ذلك الخوف من التتر إلى ما سطره ابن الأثير في كتابه: الكامل في التاريخ ١٠/ ٣٣٣، ففيه ما يدمي القلب، ويدمع العين!.

(٣) تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٧٨، البداية والنهاية لابن كثير ١٤/ ٢٣.

فلا بد إذاً من بثِّ الأمل، والتذكير بظهور هذا الدين، ونصرة أولياء الله الصالحين وإن عظم الكرب، واشتد البلاء!

٢) **التهوين من شأن العدو وتقزيم قوته:**

ولهذا العامل أثر كبير في تحقيق النصر، فإن الجندي حين يقاتل عدوه وهو مستعظم لقوته، خائف من بطشه؛ فلا بد أن يكون لذلك أثر سيئ في روحه المعنوية. لكنْ حينما يُهوَّن من شأن العدو في نفسه، وفي المقابل يذكَّر هو بقوته وما معه من سلاح وعتاد؛ فلا شك أن ذلك سيُسهم في بثِّ الشجاعة في قلبه، وحينها سيقاتل باستبسال وتضحية.

لهذا نجد القرآن يذكِّر المؤمنين بأن قوتهم بالله لا تَعدِلها قوة، وأن النصر ليس مرهوناً بنظرة مادية مجردة للعدد والعتاد، قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(البقرة: ٢٤٩). ويُثبتُ لهم تعالى ذلك بالواقع من خلال معارك دارت بين المؤمنين السابقين من أتباع الرسل وبين أعداء الله، فكانت العاقبة للمؤمنين مع قلة عددهم وعتادهم.

قال عز وجل عن قوم داود عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ

جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(البقرة: ٢٥٠ - ٢٥١).

وفي وقعة حنين لما انكشف المسلمون ولم يتبق مع رسول الله إلا قلة من المهاجرين والأنصار، وبلغ بهم الكرب مبلغه؛ حينها نزل النصر والتمكين، قال جل شأنه: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (التوبة:٢٥-٢٦).

وكما نلحظ القرآن يشجع المؤمنين على الصبر والقتال، ويذكرهم بأن الله معهم؛ فهو كذلك يهوِّن من شأن عدوهم، ويقلِّله في أعينهم مقارنةً بقوة الله وجبروته، يقول الله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾(الصف: ٨).

ولك أن تتخيل هذه المقارنة العجيبة! نورُ الله الذي طبَّق فجاج السماوات والأرض يريد هؤلاء الأقزام أن يطفئوه! وبماذا؟! بأفواههم؟!

أتطفئ نـورَ الله نفخةُ كافرٍ!
تعالى الـذي بالكبرياء تَـفـرَّدا

إن الله تعالى يذكّر المؤمنين بقوته وقدرته، وأنّ كل الخلق لا يعجزونه في مثالٍ من التاريخ لقوم ملكوا العتاد والبلاد، وصارت لهم قوةٌ ومنعة، فما أغنت عنهم قوتهم من الله شيئاً. إنهم قوم عاد الذين قال الله عنهم: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾(فصلت: ١٥).

فإذا توعَّدَنا أعداؤُنا وخوَّفونا بما لديهم من سلاح وقوة؛ فلا ينبغي أن نذل ونهون، لأن لدنيا قوةً هي أعظم من قوتهم، وسلاحاً هو أعظم من سلاحهم، ألا وهو سلاح الإيمان بالله، واللجأ إلى ركنه الشديد.

٣) **إبراز قوة الله وبطشه وانتقامه من أعدائه:**

من أهم العوامل التي تساعد على بثِّ الأمل والتفاؤل بالنصر على العدو تذكُّرُ سطوة الله وانتقامه من أعدائه.

والقرآن حافل بآيات كثيرة تبرز كيف بطش الله بأعدائه وأباد خضراءهم، فجعلهم أثراً بعد عين!

هذا فرعون الذي اغتر بملكه، وانخدع بجنده وحاشيته، وبلغ من طغيانه أنِ ادّعى أنه رب السماوات العلى! كيف كانت نهايته وقومه؟ قال الله: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾(الزخرف: ٥٥ - ٥٦).

الله أكبر! تأمل إلى قوله: (آسفونا) أي: أغضبونا وأسخطونا![1] فكانت النتيجة حينها: (انتقمنا منهم!)، وبالله كيف ستكون غضبة الله وانتقامه؟!

إن ما يقوم به الصهاينة الأنجاس وأعوانهم من أعداء الله من ظلم صراح للمسلمين، وتدنيس لحرمات الله، وانتهاك لحدوده؛ لهو مما يُستجلب به سخطُ الله، وحينها ترقَّبْ (انتقمنا منهم)، فهو آتٍ لا ريب فيه ولا مراء!

وقومُ سبأ لما أعرضوا عن أمر الله مغترين بما أوتوا من النعيم وسبل الحياة الرغيدة صبَّ الله عليهم عذابه، فكانت العاقبة: ﴿ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴾(سبأ:١٦)،﴿ وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾(سبأ: ١٩).

ما أعظم الكلمة! ﴿ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ ﴾! لقد شرِّدوا ودُمِّرت قراهم، وصاروا أحاديث السمّار وأخبار الرواة!

---

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٢٣٢.

وأما قوم لوط فإنهم لما استخفوا بأمر الله، وسخِروا من نبيِّه، وعاقروا الفحش والرذيلة في ناديهم نزل بهم عذابٌ لم يكن لأحد من العالمين! قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾(هود: ٨٢ - ٨٣).

قال قتادة: «بلغنا أن جبريل عليه السلام لما أصبح نشر جناحه فانتسف به أرضهم بما فيها من قصورها ودوابها وحجارتها وشجرها وجميع ما فيها، فضمَّها في جناحه وطواها في جوف جناحه، ثم صعد بها إلى السماء الدنيا حتى سمع سكانُ السماء أصواتَ الناس والكلاب، وكانوا أربعةَ آلاف ألف! ثم قلبها فأرسلها إلى الأرض منكوسة، ودمدم بعضها على بعض فجعل عاليها سافلها، ثم أتبعها حجارة من سجيل»[1].

لا إله الا الله! أربعةُ آلاف ألف؟!! أي: أربعة ملايين إنسان هانوا على الله في طرفة عين!

إنها قوة الله التي لا تداينها قوة، فتبارك الله رب العالمين.

إن المؤمن حين يقرأ في كتاب الله كيف كانت نهاية تلك الأمم التي عتت عن أمر ربها، ونأت عن شرعه؛ ليعُظُم رجاؤه، ويزداد أمله بحسن العاقبة.

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٤٤٢.

فلئن مكَرَ العدوّ وبالغ في كيده فالله من ورائه يمكر به: ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (النمل: ٥٠-٥١).

والتاريخ يشهد بنهاية تلك الأمم المتجبرة المعادية لرسل الله كيف كان مصيرهم: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾(العنكبوت: ٤٠).

الفرع الثاني: التفاؤل في حال الفقر وضيق العيش:

الفقر من جملة أقدار الله التي يبتلي بها من يشاء من عباده ليمتحن إيمانهم وصبرهم كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(الأنبياء: ٣٥)

قال ابن عباس: «فيبتليكم بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر»[1].

وأكثر الخلق يجزعون عند الفقر، ويتشاءمون بسوء الحال والمآل، وتنبعث منهم كلمات اليأس والقنوط كما قال عز وجل: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ (الإسراء: ٨٣).

وقد يصل الأمر ببعض الناس إلى سوء الأدب مع الله لأنه قدَّر عليه الفقر! كما قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾(الفجر: ١٥- ١٦).

إن هذه الأخلاق ليست هي أخلاقَ المؤمنين الذين رباهم القرآن على التسليم لأمر الله والرضا بقضائه وقدره.

لقد جاء القرآن الكريم ليزرع الأمل في نفوس الفقراء، ويُطَمئِن قلوبهم، وذلك من خلال عدة أمور منها:

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٤٤٠، الهداية إلى بلوغ النهاية ٧/ ٤٧٠٥.

١) التذكير بأنَّ كلَّ ما يصيب المرء من فاقة وفقر فهو أمر مكتوب، وأما الجزع والتسخُّط فلن يرد فائتاً، ولن يستجلب غائباً.

يقول الله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾(الحديد: ٢٢ - ٢٣).

إذا عُلم ذلك فينبغي للمؤمن أن يطمئنَّ قلبُه لما كتبه الله؛ لأن الجزع والقنوط لن يغير من الواقع شيئا؛ بل سيكون سبباً للتكاسل عن العمل والسعي في طلب الرزق.

٢) التذكير بأن الله قد ضمن الرزق لعبده وأنه لن يضيعه، فما يخلق الله خلقاً ثم يضيعه. فإذا علم العبد أن رزقه مكفول، وأن خزائن الله ملأى، وأنه تعالى كريم جواد، يطعم ويسقي حتى مَن حادّه وصدَّ عنه؛ فكيف بوليِّه وصفيِّه؟! إذا علم العبد ذلك كلَّه انشرح صدره، وزال عازبُ همِّه: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (هود: ٦).

لقد هيأ الله لعبده السبل ليطلب الرزق منه، فهو الرزاق ذو القوة المتين: ﴿ فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(العنكبوت: ١٧).

إن على المؤمن أن يحسن ظنه بربهِّ، فالله لا يريد له إلا الخير، وهو الذي وعد عبده بذلك، ووعده الوعد الصدق، أما الشيطان فهو الذي يقنّطه ويخوفه من الفقر وعواقبه: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٦٨).

ولما نهى الله رسولَه أن يأذن لأحد من المشركين بالاقتراب من المسجد الحرام لأنهم نَجَس خشي بعض الصحابة الفقر؛ وذلك أن أهل مكة كانت معايشهم من التجارات، وكان المشركون يأتون مكة بالطعام والميرة، فلما منعوا من دخول الحرم خاف بعض المسلمين أن يَضيق عيشُهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾(التوبة: ٢٨).

قال عكرمة: فأغناهم الله عز وجل بأن أنزل عليهم المطر مدراراً فكثر خيرهم. وقال مقاتل: أسلم أهل جدة، وصنعاء وجريش من

اليمن، وجلبوا الميرة الكثيرة إلى مكة، فكفاهم الله ما كانوا يخافون[1].

وفي مواطن الصدقة والإنفاق في سبيل الله ربما نفث الشيطان في رُوْع العبد، فجعله يتباطأ في النفقة خوف الفاقة والعَوَز؛ فيأتي القرآن ليذكِّره بأن ما ينفقه مخلوف عليه، وأن الله سيعوضه إنْ في الدنيا، وإنْ في الآخرة، وإنْ فيهما جميعا! يقول سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾(سبأ: ٣٩).

وقال ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم أَنفِقْ أُنْفِقْ عليك»[2].

وأما ما ينتظر العبد من الجزاء الأوفى إذا وافى ربَّه؛ فهو من أعظم ما يدفعه للبذل، ويبعد عنه شبح الفقر ووساوس الشيطان. يقول جلّ شأنه: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(البقرة: ٢٧٤). وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾(فاطر: ٢٩ - ٣٠).

---

(١) قول عكرمة ومقاتل انظره في: تفسير البغوي ٤/ ٣٢.

(٢) رواه البخاري ٢/ ٦٩٠ رقم (٤٦٨٤)، ومسلم ٢/ ٦٩٠ رقم (٩٩٣) عن أبي هريرة ﷺ.

ومَن أنفق ماله يريد به وجه الله والدار الآخرة فقد عقد صفقة مع الله مضمونة الأرباح، فلا خوف من خسارة وكساد: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦١).

وتأمل معي إلى هذا الأنموذج العجيب من أحد أصحاب رسول الله ﷺ ممن امتلأت قلوبهم يقيناً بما عند ربهم، وحسنَ ظنٍّ في كرمه ورحمته، وتفاؤلاً بالعِوض والخَلَف من الله، فهان عليه المال، وصار أرخص في يده من التراب، لأن ما عند الله خير وأبقى.

إنه أبو الدّحداح الأنصاري ﷺ ذاك الذي هانت عليه الدنيا، فعقد صفقة مع الله فما قال ولا استقال!

عن زيد بن أسلم قال: لما نزل: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ (البقرة: ٢٤٥) قال أبو الدحداح: فداك أبي وأمي يا رسول الله، إن الله يستقرضنا وهو غنيٌّ عن القرض؟! قال: «نعم يريد أن يدخلكم الجنة به!». قال: فإني إنْ أقرضت ربي قرضاً يضمن لي به ولصبيتي الدحداحةِ معي الجنة؟ قال: «نعم». قال: فناولني يدك؛ فناوله رسوله الله ﷺ يده: فقال: إن لي حديقتين إحداهما بالسافلة والأخرى بالعالية، واللهِ لا أملك غيرهما، قد جعلتهما قرضاً لله تعالى! فقال رسول الله ﷺ: «اجعل إحداهما لله، والأخرى دعها معيشة لك ولعيالك». قال: فأُشهدك

يا رسول الله أني قد جعلت خيرهما لله تعالى، وهو حائط فيه ستمائة نخلة! قال: «إذاً يجزيك اللهُ به الجنة!».

فانطلق أبو الدّحداح جذلاً لا تكاد تسعه الدنيا من الفرح، حتى جاء إلى زوجته أمِّ الدحداح وهي مع صبيانها في الحديقة تدور تحت النخل، فأنشأ يقول:

هَـــدَاكِ رَبِّـــي سُـبُـلَ الـرَّشَـادِ
إِلَـى سَبِيلِ الْـخَـيْـرِ وَالـسَّـدَادِ
بِبِنِي مِـنَ الْـحَـائِـطِ[1] بِـالْـوِدَادِ
فَـقَـدْ مَضَى قَـرْضًـا إِلَـى التَّنَادِ
أَقْـرَضْـتُـهُ الـلَّـهَ عَلَى اعْتِمَادِي
بِـالـطَّـوْعِ لَا مَـنٍّ وَلَا ارْتِـدَادِ
إِلَّا رَجَـاءَ الضِّعْفِ فِي الْمَعَادِ
فَـارْتَـحِـلِـي بِالنَّفْسِ وَالْأَوْلَادِ
وَالْـبِـرُّ لَا شَـكَّ فَـخَـيْـرُ زَادِ
قَـدَّمَـهُ الْـمَـرْءُ إِلَـى الْـمَـعَـادِ!

(١) قوله: «بيني من الحائط» أي: فارقيه، والبينونة: الفراق، ومنه قول كعب بن زهير:
بانت سعاد فقلبي اليوم متبولُ متيَّم إثـرها لم يُفْـدَ مكبولُ
انظر: تاج العروس ٣٤/ ٢٩٣، المعجم الوسيط ١/ ٧٩.

فماذا كان ردُّ أمِّ الدحداح؟ هل ولْوَلتْ واعترضت وهي تسمع هذا النبأ من زوجها؟ إنها ستخرج من البيت والبستان الذي آواها وأولادها ومُتِّعتْ بها زمناً طويلاً!

لقد كان الجواب من هذه المرأة الصالحة التي سكن الإيمان قلبها، واستقر حسنُ الظن بربها في سويدائه أن قالت: ربح بيعك يا أبا الدّحداح! بارك الله لك فيما اشتريت! بل وترنَّمت بأبيات شعرية تعبّر عما يجول في نفسها من الفرح والاطمئنان لكريم موعود الله، فقالت:

بَـشَّـرَكَ الـلَّـهُ بِـخَـيْـرٍ وَفَـرَحْ
مِـثْـلُـكَ أَدَّى مَـا لَـدَيْـهِ وَنَـصَـحْ
قَـدْ مَـتَّـعَ الـلَّـهُ عِـيَـالِـي وَمَـنَـحْ
بِالْعَجْوَةِ السَّوْدَاءِ وَالزَّهْوِ الْبَلَحْ
وَالْعَبْدُ يَسْعَى وَلَـهُ مَا قَدْ كَدَحْ
طُـولَ الليالي وعليه ما اجترح!

ثم أقبلت أم الدحداح على صبيانها تُخرج ما في أفواههم، وتنفض ما في أكمامهم من التمر، وهي تقول: قوموا فقد أقرضناه لربي عز وجل!

يا الله!! كم يفعل الإيمان بأهله؟!

إن هذه المرأة الصالحة حينما كانت تُخرج التمر من أفواه صبيتها لكأنها تنتزع قلبها من بين جوانحها، ولكنّها الجنة! ولأجل الجنة يهون كل شيء!

وقد كان لهم ذلك بشارةً على لسان رسول الله ﷺ حين قال: «كم من عذق رداح[1] ودارٍ فيّاح[2] لأبي الدحداح!»[3].

ومما يذكّر به القرآن في موضوع الجزع والتشاؤم حين يُبْتَلَى المرءُ بالفقر الإشارة إلى أن المال فتنة، وقد يكون سبباً لانحراف العبد عن طريق الله، فتكون تلك هي الخسارة الحقة وليست خسارة المال والمتاع، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾(الزمر: ١٥).

٣) ومما جاء القرآن الكريم به ليُطمئن الفقير، وليرضى بما قسم الله له؛ الإشارةُ إلى أن الغنى قد تكون عواقبه وخيمة على من رُزقَه! فقد يبتلي الله عبده بالغنى فينسى بذلك ربَّه، وينشغل

---

(١) «رداح» أي: ثقيلة لكثرة ما فيها من الثمار. انظر: المحكم ٣/ ٢٥٩، المعجم الوسيط ١/ ٣٣٧.

(٢) الفياح والأفيح: الواسع. انظر: غريب الحديث لابن قتيبة ١/ ٥٦٩.

(٣) انظر مجمل القصة في: الهداية إلى بلوغ النهاية ١/ ٨١٣، تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٣٩، الكشف والبيان ٢/ ٢٠٧، تفسير القرطبي ٣/ ٢٣٧.وخبر أبي الدحداح ورد بروايات وأسانيد مختلفة لا تخلو من مقال؛ لكن بعضها يشد بعضها. انظر: تعليق شعيب الأرناؤوط (وآخرين) على مسند الإمام أحمد ١٩/ ٤٦٥ حديث رقم (١٢٤٨١).

بهذا المال عن طاعة مولاه: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴾ (الإسراء: ٨٣)، وربما يجعل الله من أسباب طغيان العبد استغناؤه بالمال، كما قال سبحانه: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ (العلق: ٦ - ٧).

لقد آتى الله قارون مالاً عظيماً وذهباً وفيراً حتى إن مفاتيح الخزائن لذلك المال ليثقل حملُها على الجماعة من الرجال الأشداء، ومع ذلك فهي تتعبهم في حملها لكثرتها! قال الله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ﴾ (القصص: ٧٦). وقد جاء في بعض الآثار إنها كانت تُحملُ على ستين بغلاً![1].

لقد كان قبل الغنى رجلاً صالحاً من أحسن بني إسرائيل صوتاً بالتوراة! قال قتادة: «كان يسمّى (المنوّر) من حسن صوته بالتوراة، ولكن عدوَّ الله نافق كما نافق السامريُّ، فأهلكه الله ببغيه لكثرة ماله!»[2].

وكان يُناصَح ويُذكَّر بفضل الله عليه، وأن ما هو فيه من نعيم فمردُّه إلى الله، ولكنه أبى ذلك ونسب الفضل لنفسه فقال: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ (القصص:٧٨). فلما رأى الله ذلك منه أذاقه

(١) انظر: تفسير الطبري ١٩/ ٦١٧، تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٠٧، تفسير البغوي ٦/ ٢٢٠.

(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٦١٦، تفسير ابن كثير ٦/ ٢٥٣.

العذاب الوبيل، قال الله: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ (القصص: ٨١).

وأما الفقراء الذين كانوا يغبطونه أول الأمر على ما هو فيه من نعيم، ويتمنون أن يكون حالهم كحاله؛ فقد عرفوا فضل الله عليهم بأنه لم يفتنهم كما فتنه: ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (القصص: ٨٢).

إن الموفق حقًّا هو مَن يرضى بما قسمه الله له فإن ذلك هو الخير؛ لأن الله لن يختار لعبده المؤمن إلا ما هو خير له.

والله تعالى حكيمٌ يعلم ما يَصلح لعبده، فليس كلُّ الناس يصلح له الغنى، كما أنه ليس كلهم يصلح له الفقر!

وقد روي في الحديث القدسي: «إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا بالفقر، ولو أغنيته لكفر!»[1].

وقد حكى الله لنا عن رجل كان في عهد رسول الله ﷺ فقيراً فسأل اللهَ الغنى، وعاهد ربه أن يكون صالحاً منفقاً في سبيل الله إن

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ٣١٨، والديلمي في الفردوس ٥/ ٢٥٠ رقم (٨١٠٠)، والبغوي في شرح السنة ٥/ ٢١ رقم (١٢٤٩) عن أنس ﷺ، وضعفه ابن الجوزي في العلل المتناهية ١/ ٤٥، والألباني في السلسلة الضعيفة ٤/ ٢٥٠ رقم (١٧٧٤). والحديث وإن كان سنده ضعيفاً إلا أن معناه صحيح.

أوتي المال، فاستجاب الله له فكان حاله أسوأ الحال، حيث أطغاه المال وأنساه ذكر ربِّه، فعاقبه الله بعقوبة شديدة، حيث طمس على قلبه فصار منافقاً خالصاً والعياذ بالله، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ (التوبة:٧٥-٧٧).

وبهذا يتضح أن الجزع والتسخُّط من الفقر وقلةِ ذات اليد ليس من صفات المؤمنين، فإن المؤمن يرجو بفقره - إن ابتلي به - عظيم الأجر عند الله، والسلامةَ من فتنة المال التي أغوت أكثر الخلق، عندها يطمئن قلبه لاختيار الله له، وترتاح نفسه لما كتب الله عليه، ويحيا متفائلاً بعطايا ربِّه له؛ فإن في طيات المحن مِنَحاً لا يدري العبد عنها حتى يكشفها الله له، وعندها يعلم علم اليقين أن اختيار الله له كان خيراً من اختياره لنفسه.

الفرع الثالث: التفاؤل عند فقد الأولاد وموتهم:

الأولاد من بنين وبنات إحدى نعم الله على عبده متى ما أصلحهم الله وكانوا بررة بوالديهم، ولهذا قال جل شأنه: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (الكهف: ٤٦).

وقد يُبتلى المرء في هذا الباب بأنواعٍ من البلاء: إما بحرمانه من الذرية، أو بالخوف عليهم، أو بفقدانهم.

وبناء على ما سبق فسيكون الحديث هنا حول هذه الجوانب، وكيف بثَّ القرآنُ الكريم الفألَ الحسن في نفوس منِ ابْتُلي بها.

١) الحرمان من الذرية:

كما سبق فالأولاد نعمة من الله، يهبها من يشاء من عباده، وقد يَحرم منها آخرين، وله الحكمة البالغة في ذلك، ولا رادَّ لأمره، فالخلق خلقُه، والحُكم حُكمُه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٣)، لذلك قرر الله هذا الأمر لتطيب نفس من حُرم الذرية بأن الحكمة يعلمها الله وحده.

ومنع المرء من الذرية أو الحرمان منهم هو محض مشيئة الله وحده، وليس للبشر فيه صنع،كما قال جل في علاه:﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ

﴿ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾(الشورى: ٤٩ - ٥٠). والحرمان من الذرية لا يقال بأنه عقوبة من الله، كما أن مَنحَه الذرية للمرء لا يدلّ بالضرورة على الرضا!

ومع أن الإنسان قد يُبْتلَى بالحرمان من الذرية إلا أن القرآن الكريم جاء ليزرع الأمل في نفس ذلك المبتلى بهذا البلاء بأن لا يقنط من رحمة الله، فإن الذي منعه الولد قادر على أن يهبه له!

وتأمل كيف حكى الله لنا نماذج من عباده الذين حُرموا الأولاد فدعوا ربهم وصدقوا في اللَّجأ إليه، فاستجاب لهم ووهبهم ما أمّلوا وزيادة!

دعا الخليل إبراهيم عليه السلام ربَّه أن يهبه ذرية صالحة وكان شيخاً كبيراً، والأعجب من ذلك أن زوجته كانت كذلك طاعنة في السن؛ بل وعقيماً لا تنجب! ومع ذلك وهبهم الله ولداً صالحاً كان نبياً من الأنبياء وهو إسحاق عليه السلام، بل زادهم أن جعل حفيدهم من هذا الولد نبياً أيضاً وهو يعقوب عليه السلام، يُمتَّعون بهما في حياتهما رحمة من الله وفضلاً.

لقد دعا الخليل إبراهيم فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (الصافات: ١٠٠)، فجاءته البشرى على لسان ملائكة الله حين زاروه، كما حكى الله ذلك بقوله: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى

شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ (هود: ٧٢- ٧٣).

ومِثلُ الخليل نبيُّ الله زكريا حيث دعا ربه فقال: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ (الأنبياء: ٨٩). وحكى الله عنه كيف كان يتملق ربه ويحسن الظن بمولاه فيدعوه دعاء مخبتاً خفياً: ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ (مريم: ٣)، فجاءته البشرى: ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ (مريم: ٧). بل وجعله الله نبياً من أنبيائه: ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ (مريم: ١٢ - ١٥).

سبحان الله! تأمل كيف أن كل هذه الكرامات والفضائل توالت عليه! فهل يقنط محروم بعد ذلك من فضل الله وسعة رحمته؟!

٢) موت الأولاد:

وقد يهب اللهُ عبدَه الولدَ، ثم يصطفيه إليه، فتظلمُ الدنيا في وجه الوالد، ويعظُم كربه وبلاؤه، وحُقَّ له ذلك؛ فإن فَقْدَ الولد إحدى رزايا الدهر، ولا يعرف هذا الأمر إلا من تجرّع مرارة الفراق، وعلقم الحرمان!

هذا الشاعر ابن الرومي حين فقد ولده محمداً بكاه بقصيدة أبكت الحجر والمدر، وأسبلت الدموع من محاجر العيون، ومما قال في ذلك:

تَوَخَّى حِمَامُ الـمَوْتِ أَوْسَطَ صِبْيَتِي
فَلِلَّهِ كَيْفَ اخْتَارَ وَاسِطَةَ العِقْدِ
عَلَى حِيْنِ شِمْتُ الخَيْرِ مِنْ لَمَحَاتِه
وآنَسْتُ مِنْ أفْعَالِهِ آيَـةَ الرُّشْـدِ
طَوَاهُ الرَّدَى عَنِّي، فَأَضْحَى مَزَارُه
بَعِيدَاً عَلَى قُـرْبٍ، قَرِيبَاً عَلَى بُعْدِ
لَقَدْ أَنْجَزَتْ فِيْهِ الـمَنَايَا وَعِيْدَهَا
وَأَخْلَفَتِ الآمَـالُ مَا كَانَ مِنْ وَعْدِ
لَقَدْ قَلَّ بَيْنَ الـمَهْدِ وَاللحْدِ لَبْثُهُ
فَلَمْ يَنْسَ عَهْدَ المَهْدِ إذْ ضُمَّ فِي اللَّحْدِ
أَلَـحَّ عَلَيْهِ الـنَّـزْفُ حَتَّى أَحَالَهُ
إِلَى صُفْرَةِ الجَادِيِّ عَنْ حُمْرَةِ الوَرْدِ
وَظَـلَّ عَلَى الأيْـدِي تَسَاقَطُ نَفْسُهُ
وَيَذْوِي كَمَا يَذْوِي القَضِيبِ مِنَ الرَّنْدِ

فَيَالَكِ مِـنْ نَفْسٍ تَسَاقَطُ أَنْفُسَاً
تَسَاقُطَ دُرٍّ مِـنْ نِـظَـامٍ بِـلا عَقْدِ
عَجِبْتُ لِقَلْبِي كَيْفَ لَمْ يَنْفَطِرْ لَهُ
وَلَوْ أَنَّهُ أَقْسَى مِنَ الحَجَرِ الصَّلْدِ
بِـودِّيَ أَنِّـي كُنْتُ قَـدْ مُـتُّ قَبْلَهُ
وَأَنَّ الـمَنَايَا دُوْنَهُ صَمَدَتْ صَمْدِي
وَلَـكِـنَّ رَبِّـي شَـاءَ غَيْرَ مَشِيئَتِي
وَلِلرَّبِّ إِمْضَاءُ الـمَشِيئَةِ لا العَبْدِ
وإِنِّـي وَإِنْ مُتِّعْتُ بِابْنَيَّ بَعْدَهُ
لَذَاكِرُهُ مَا حَنَّتِ النِّيبُ فِي نَجْدِ
وَأَوْلادُنَـا مِثْلُ الـجَـوَارِحِ، أَيُّهَا
فَقَدْنَاهُ كَانَ الفَاجِعَ البَيِّنَ الفَقْدِ![1]

أجل! المصاب جلل، والبلاء عظيم، ولكن ما الحيلة وهذا ما قدره الله وأراده؟!

لقد جاء القرآن معزِّياً لأولئك المصابين بفقد أولادهم، باثّاً في نفوسهم عظيم الرجاء بما يؤملونه حين يصبرون على هذا البلاء،

(١) ديوان ابن الرومي ١/ ٤٠٠.

يقول عز وجل: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾(البقرة: ١٥٥- ١٥٧). يا لها من كرامات عظيمة تعزّي كل مكروب وتُعظِم أمله في ربه!.

ذكر الأصمعي قصةً حصلت له يقول: خرجت أنا وصديق لي إلى البادية فضللنا الطريق، فإذا نحن بخيمة عن يمين الطريق فقصدنا نحوها فسلمنا، فإذا امرأة تردُّ علينا السلام، قالت: من أنتم؟ قلنا: قومٌ ضالون - يعني تائهون عن الطريق- رأيناكم فأنسنا بكم، قالت: يا هؤلاء وَلُّوا وجوهكم عنِّي حتى أقضي من حقكم ما أنتم له، ففعلنا. فألقت إلينا مِسحاً فقالت: اجلسوا عليه إلى أن يأتيَ ابني، ثم جعلت ترفع طرَف الخيمة وتردُّها إلى أن رفعته مرة فقالت: أسأل الله بركة المقبل، أمّا البعير فبعير ولدي، وراكبه ليس بولدي! قال: فوقف الراكب عليها وقال: يا أمّ عقيل أعظم الله أجرك في عقيل ولدك! قالت: ويحك مات ولدي؟ قال: نعم، قالت: وما سبب موته؟ قال: ازدحمت عليه الإبل فرمته في البئر! فقالت هذه المرأة الصابرة: انزل واقضِ ذمام القوم - أي حقَّ الضيوف- ودفعت إليه كبشاً فذبحه وأصلحه وقرَّب إلينا الطعام! فجعلنا نأكل ونتعجب من صبرها، فلما فرغنا خرجت إلينا وقالت: يا قوم هل فيكم أحدٌ يحسن من كتاب الله عز وجل شيئاً، قلت: نعم، قالت: فاقرأ عليَّ آياتٍ أتعزّى بها عن

ولدي! قلت: يقول الله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾(البقرة: ١٥٥ - ١٥٧). قالت: آلله إنها في كتاب الله هكذا؟ قلت: واللهِ إنها لفي كتاب الله هكذا! قالت: السلام عليكم. ثم صفّت أقدامَها وصلّت ركعات، ثم قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، وعند الله أحتسب عقيلاً! ثم قالت: اللهم إني فعلت ما أمرتني به فأنجز لي ما وعدتني، ولو بقي أحدٌ لأحدٍ لبقي محمد ﷺ لأمته!

قال الأصمعي: فخرجت وأنا أقول: ما رأيت أكمل منها ولا أجزل! ذكرت ابنها بأحسن خصاله وأجلِّ خِلاله، ثم لما علمت أن الموت لا مدفع عنه، ولا محيص عنه، وأن الجزع لا يجدي نفعاً، وأن البكاء لا يردّ هالكاً رجعت إلى الصبر الجميل، واحتسبت ابنها عند الله عز وجل ذخيرة نافعة ليوم الفقر والفاقة.[1]

وحين ذكر الله عز وجل أن المال والبنين هم زينة الحياة الدنيا أعقبها بقوله: ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ (الكهف: ٤٦). وكأنها تعزية لمن فقد الولد والمال بأن الباقي من الأعمال الصالحة هو الربح الحقيقي والمتجر الرابح، ومن جملة العمل الصالح الصبر على فقد الولد.

(١) الجليس الصالح والأنيس الناصح للمعافى بن زكريا ٢/ ١٢٩.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «بخٍ بخٍ! وأشار بيده الخمس، ما أثقلهن في الميزان: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، والولد الصالح يُتوفى للمرء المسلم فيحتسبه!».[1]

ولقد فهم هذا المعنى الخليفة الصالح عمر بن عبدالعزيز رحمه الله؛ حين فقد أحبّ ولده إليه وهو عبد الملك، فكان يقول: «يا بنيّ! لقد كنتَ في الدنيا كما قال الله جل ثناؤه: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (الكهف: ٤٦) ولقد كنتَ أفضل زينتها، وإني لأرجو أن تكون من الباقيات الصالحات التي هي خير ثواباً وخير أملاً»[2].

٣) ضياع الأولاد وفقدانهم:

ولأن مصائب الدنيا متنوعة فقد يصاب المرء بغياب ولده عنه، فلا يدري أهو حيٌّ فيُرجى أو ميت فيُنسى!؟ وتلك لعمر الله بليّة ربما فاقت ما سبقها!

وإذا أراد الله بعبده خيراً فإنه يثبته، ويملأ قلبه بحسن الرجاء والفأل، فيؤمِّل في الله أن يردَّ له ضالته، ويعيد إليه فِلذة كبده.

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ٢٩/ ٦١٨ رقم (١٨٠٧٦)، والنسائي في السنن الكبرى ٩/ ٧٤ رقم (٩٩٢٣)، والبيهقي في شعب الإيمان١٢/ ٢١٦ رقم (٩٢٩٩) عن أبي سلمى ﷺ. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد١/ ٢٧: «رجاله ثقات»، وصححه الألباني في: صحيح الترغيب ١/ ٦٣٦ رقم (١٠٥٧).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ٣٧/ ٥١.

وقد حكى الله لنا في القرآن أنموذجاً من نماذج المبتلَين الصابرين بهذه البلوى ليكون عزاءً وأملاً لمن أصيب بغياب ولده.

إنه نبيُّ الله الصابرُ يعقوبُ عليه السلام الذي فقد ثلاثة من أولاده: يوسف وبنيامين وأخاهما الأكبر!

وقصة يعقوب التي حكاها القرآن قصة تُذيب القلوب لما فيها من ذكر الابتلاءات المتكررة على هذا الرجل الصالح! لهذا كان عمر بن الخطاب ﷺ إذا قرأ سورة يوسف لا يملك دموعه الغزار تجري على لحيته.

يقول عبدالله بن شداد: «سمعت نشيج عمر وأنا في آخر الصفوف يقرأ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1] (يوسف: ٨٦).

لقد كان نبيُّ الله يعقوب مع شدة ما لقي من البلاء عظيمَ التفاؤل بالله تعالى، فلم يقطع الأمل مع تكرار فقد أولاده، بل كان يردِّد: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ (يوسف: ٨٣). وهذا ما لا مفرَّ للمرء منه، فقد وقع البلاء فلا بدّ من الصبر حينها، ولكنْ مع الصبر فألٌ حسن، وأملٌ في الله لا ينقطع: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ (يوسف: ٨٣). وليس يوسف فقط! لأن المؤمَّلَ فيه هو الذي يُخرج الخبء في السموات والأرض!

---

(١) رواه البخاري ١/ ١٤٤ رقم (٧١٦).

وقد كان له ذلك كلُّه! فقد جمع الله شمله بأولاده جميعاً، وردَّ إليه بصره الذي فقده من كثر البكاء!

وفَقْدُ يوسفَ لم يكن شهراً أو سنة، بل كان أربعين سنة كما ذكره غير واحد من المفسرين![1].

وهذا ما يدل عليه سياق القصة، فإنه فقد ولده وهو غلام صغير، والتقى به بعد أن كان عزيز مصر، ولذلك لما التقى به إخوته عرفهم وهم له منكرون!

وفي كل هذه المدة الطويلة كان يعقوب عليه السلام يعيش على أمل اللقاء بريحانة فؤاده يوسف، حتى إن أولاده عجبوا من كثرة ذكر أبيهم ليوسف، وعدم قنوطه من رجعته مع تقادم العهد وطول السنين فقالوا له: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾(يوسف: ٨٥). فكان يرد عليهم بأن خلُّوا بيني وبين ربي، فإنما شكواي له لا إلى غيره: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٨٦). ثم يتجلى عظيم أمل هذا العبد الصالح في ربِّه وتفاؤله بعودة يوسف فيقول: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾

(١) انظر: تفسير الطبري ١٦/ ٢٧١، الهداية إلى بلوغ النهاية ٥/ ٣٦٤٠، الكشف والبيان ٥/ ٢٥٩.

(يوسف: ٨٧). يا لِهذه النفس المتفائلة! ويا لهذا القلب المكلوم! ولو لم يكن لدى يعقوب هذا الفأل لهلك من شدة البلاء وعظيم المصاب!

٤) **الخوف على مستقبل الأولاد:**

وقد يُبتلى المرء بالخوف على مستقبل أولاده؛ إما في حال حياته، أو بعد مماته.

فأما في حال حياته فقد يخشى عليهم الفاقة والفقر، فيصاب بالهمّ لما يرى من المعطيات أمامه، فالحياة تكاليفها صعبة، والأولاد لهم مطالب وحاجات لا يقوى على القيام بها، وربما خاف عليهم المرضَ والموت ونحو ذلك.

ومثل هذا الشعور لدى الوالدين قد يحصل كثيراً وخاصة في واقعنا اليوم بعد أن ضعف تعلّق أكثر الناس بالله، واعتمدوا على الأسباب المادية مجردةً عن مسبِّبها تبارك تعالى.

وما أكثر ما يردِّد الآباء: نريد أن نؤمِّن مستقبل أولادنا!، وكأن أمر المستقبل بأيديهم! إنَّ أحدهم لا يملك أمر مستقبله هو فضلاً عن مستقبل غيره!

لذلك جاء القرآن الكريم ليُطَمْئِنَ المؤمن بأن الرزق مكفول له ولأولاده؛ لأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين.

وقد نحا الله على أهل الجاهلية ما كانوا يفعلونه - وهو موجود اليوم في بعض البيئات - مِن قتل أولادهم خشية الفقر، فقال: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ (الأنعام: ١٥١)، فلِمَ الخوف إذن من المستقبل والله قد وعد برزقهم؟!

ونجد كذلك أن الله أمر بالنفقة على الزوجة والأولاد بالمعروف، وعدم اليأس من رزق الله حتى لو كان المرء فقيراً، فإن الرزق آتٍ، وسيبدل الله بالحال ما هو خير، قال تعالى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ (الطلاق: ٧). فمع العسر يأتي اليسر، ومن رحم المعاناة ينبثق نور الأمل: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (الشرح: ٥ - ٦).

قال عمر ﷺ: «إنه لم تكن شدة إلا جعل الله بعدها مخرجاً، ولن يغلب عسرٌ يسرين»[1].

ويزداد الخوف عند أكثر الآباء والأمهات على أولادهم في ساعة الموت حين يكون الفراق، وذلك أنهم يتذكرون أن أولادهم من بعدهم لا عائل لهم، فيشتد القلق والخوف على مصيرهم.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة ٤/ ٢٢٢ رقم (١٩٤٨٦)، والبيهقي في شعب الإيمان ١٢/ ٣٥٩ رقم (٩٥٣٨).

وقد عالج القرآن الكريم هذا الأمر بأن ألقى على قلوب الوالدين المبشرات بأن الله هو كافلهم من بعدهم، وأن لا خوف عليهم؛ لكن ذلك مشروط بتحقيق تقوى الله، والقيام بحقوق الناس، وعدم ظلمهم، يقول الله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾(النساء: ٩). فإذا كان العبد حال حياته متّقياً لربه، بعيداً عن ظلم الناس وانتهاك حرماتهم؛ فإن الله يحفظ له ذريته من بعده، فلا يناهم ظلمٌ وفَاقة.

ومما يذكر في هذا الباب أن الخليفة الراشد عمرَ بن عبد العزيز حين وافاه الأجل قالوا له: يا أمير المؤمنين! أفغَرتَ أفواه بنيك من هذا المال وتركتهم فقراءَ ولا شيء لهم! فقال: أدخلوهم عليَّ، فجيء بهم - وكانوا بضعة عشر صبياً - كأنهم أفراخ! فلما رآهم رقَّ لهم وبكى، وقال: بنفسي من تركتهم ولا مال لهم! فقال له محمد بن مسلمة: يا أمير المؤمنين! أوصِ بهم إليّ، فقال عمر: يا بَنيَّ؛ إن أباكم قد خُيّر بين أن يترككم فقراء ويدخل الجنة، وبين أن يترككم أغنياء ويدخل النار، وإني اخترت أن تكونوا فقراء وأدخل الجنة! إن وليِّي فيكم الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين. ثم مات-رحمه الله ورضي عنه-.

وقد حكى بعض الرواة أن أولاد عمر شوهدوا بعد عشرين سنة وهم يُسرجون الخيول في سبيل الله، وأما أولاد بعض خلفاء بني أمية فقد كانوا يسألون الناس في مسجد السلام في بغداد[1]!

(١) حسن السلوك للموصلي، ص٨٤.

الفرع الرابع: التفاؤل عند عدم الوفاق الزوجي:

الحياة الزوجية لا تصفو لكل أحد، فقد تقع مكدرات تفسد رونق الحياة بين الزوجين. ومن أعظم تلك المكدرات أن لا يحدث الحب والتوافق بين الزوج وزوجته، فتحدث عند ذلك الخصومات والمنازعات، وتُظلِم الدنيا في وجه الزوج والزوجة، وربما يئسا من إصلاح الحال!

وقد عالج القرآن الكريم هذه المعضلة بأن أمَّل الزوجين في الخير الذي ينتظرهما حتى ولو لم يكن بينهما محبة وألفة. يقول الله تعالى للأزواج: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(الممتحنة: ١٩).

وتأمل كيف نكَّر كلمة (خيراً)، ثم وصفه بقوله: (كثيراً)؛ ليملأ نفس ذلك الزوج الذي لم يجد في قلبه مودة لزوجته بالفأل والخير الكثير، فما كلُّ ما يكرهه الإنسان يكون شراً!

فمن الخير للزوج حين يُبقي زوجته ولو كان كارهاً لها ما يناله من الأجر عند الله بسبب صبره عليها، والصابرون يوفَّون أجورهم بغير حساب.

وقد يُرزق الزوج من زوجته التي لم يحبّها أولاداً صالحين، وتلك من زينة الحياة الدنيا، وقد تكون تلك المرأة سبب رزق له في أمر معاشه، وذلك أنها في نهاية الأمر امرأة مستضعفة، فإحسانه إليها، واحتمال ما قد يناله من ضيقٍ بسببها ربما يكون من أسباب إغداق اللهِ الخيرَ عليه!

يقول النبي ﷺ: «أبغوني ضعفاءكم، فإنكم إنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم»[1].

وليس الحبُّ وحده كافياً لإصلاح البيوت وإضفاء السعادة عليها، كما أن انعدامه لا يعني بالضرورة فسادَها واستحالةَ العيش فيها. ولهذا قال عمر الفاروق ﷺ: «ليس كل البيوت تُبنى على الحب، ولكنْ معاشرةٌ على الإحسان والإسلام»[2].

ومع ذلك كلِّه فلا ينبغي للزوجين إذا كره أحدُهما الآخرَ أن ييأس من حصول الحبِّ ولو بعد حين؛ فإن القلوب بيد الله، وقد يَعْطِف اللهُ قلب كل منهما على الآخر فيحدث الحب مع طول العشرة وحصول الولد.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في حصول المودة بعد العداوة والبغضاء، فقال تعالى للمؤمنين: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الممتحنة: ٧).

فإذا كان هذا الحب والمودة حصل بين أعداء متقاتلين فحصوله بين زوجين تجمعهما أواصر كثيرة من باب الأولى.

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ٣٦/ ٦٠ رقم (٢١٧٣١)، والترمذي في سننه ٤/ ٢٠٦ رقم (١٧٠٢) عن أبي الدرداء ﷺ، وقال: حديث حسن صحيح. وانظر: السلسلة الصحيحة ٢/ ٤٠٨ حديث رقم (٧٧٩).

(٢) شرح السنة ١٣/ ١٢٠، كنز العمال للهندي ١٦/ ٥٥٥ رقم (٤٥٨٥٩).

الفرع الخامس: التفاؤل بمغفرة الله وعدم اليأس من رحمته:

النفس البشرية مجبولة على النقص والخطأ، وقد يتمادى الشيطان بالعبد فلا يزال يغويه حتى يغرقه في مستنقع الذنوب والموبقات، وعندها يقنِّطه من رحمة الله ومغفرته، وكلما همَّت نفسه بالتوبة وتحرَّك داعي الإيمان في قلبه حضر الشيطان وصعَّب عليه الأمر بحجة أن ما قام به ذنب عظيم لا يمكن لمن قارفَه أن يتخلّص من أدرانه وينعتق من أغلاله!

وكم صدَّ الشيطانُ بهذه الخطرات الآثمة والحيلِ الماكرة عدداً من الخلق عن التوبة والأوبة إلى الله تعالى، فأصيب أولئك المذنبون باليأس من تغيير أحوالهم وإصلاح واقعهم!

لأجل هذا كان القرآن شفاء لمن أراد الشفاء، وطوق نجاة لمن أراد الحياة الحقة.

إن عدداً كبيراً من آيات القرآن الكريم ليفتح للمذنب باب الأمل في العودة إلى الله، ويزيد الرجاء في إمكانية تغيير واقعه إلى ما هو خير له.

ويمكن أن نتلمّس جوانب بثِّ التفاؤل وحسن الظن المذكورة في آيات القرآن لمن وقع في الذنوب وأسرف فيها من خلال ما يأتي:

أولاً: التذكير بسعة رحمة الله وعظيم لطفه بالتائبين:

والآيات في هذا الباب كثيرة جداً!

فمن تأمل صفات الله وجد التركيز أكثر ما يكون على الصفات التي تُطمع العبد في القرب من ربه، فما أكثرَ ما وصف الله نفسه بالرحيم والغفور واللطيف وغيرها.

تأمل معي إلى هذه الآية الكريمة: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾(الحجر: ٤٩ - ٥٠)، انظر كيف قدَّم الرحمةَ على العذاب، وتأمل اختياره تعالى لكلمة (عبادي)، وذلك مبالغةً في التحبُّب إليهم مع غناهُ عنهم، والخطاب بلفظ (عبادي) من أعظم الشرف وأجلِّ النداء!

ومما زادني شرفاً وتيهاً
وكدت بأخمصي أطأ الثريّا
دخولي تحت قولك يا عبادي
وأن صيَّرت أحمد لي نبيا[1]

ثم إنه تعالى وصف نفسه في الآية الأولى بأنه الغفور الرحيم، وأما في الآية الثانية فجاء الوصف للعذاب بأنه العذاب الأليم، ولم يصف نفسه بالمنتقم أو الجبار، وذلك ليبين حبَّه للمغفرة، فالعفو

(١) ينسب البيتان للقاضي عياض. انظر: غذاء الألباب للسفاريني ٢/ ٣٧٢.

أحبُّ إليه من العقوبة؛ ولئلا يقنِّط العبد من رحمته وسعة فضله.

عن أبي هريرة ﷺ قال: خرج النبي ﷺ على رهط من أصحابه يضحكون ويتحدثون فقال: «والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً». ثم انصرف رسول الله ﷺ وأبكى القوم! فأوحى الله عز وجل إليه: يا محمد لمَ تقنط عبادي؟! فرجع رسول الله ﷺ فقال: «أبشروا وسدِّدوا وقاربوا»[1].

وتأمل معي إلى هذه الآية الكريمة وكيف فتح الله فيها باب الرجاء وحسن العاقبة والمآل لمن تاب إليه ولو كان مسرفاً في ذنوبه، مبالغاً في تفريطه في جنب ربه، فالله يغفر ذلك كلَّه! قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣). وكل كلمة في هذه الآية تمتلئ بحزمة كثيفة من الفأل والرجاء!

(قل يا عبادي)، والنداء بـ(يا عبادي) له معنى خاص كما سبق.

(الذين أسرفوا على أنفسهم) ولم يقل: (الذين أذنبوا) فحسب؛ بل ذكر الإسراف، وهو تجاوز الحدّ في الخطأ والمعصية.

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ١٦/ ٧٧ رقم (١٠٠٣٠)، والبخاري في الأدب المفرد ١/ ٩٨ رقم (٢٥٤)، والبيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٣٤٣ رقم (١٠٢٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٧/ ٥٨٩ رقم (٣١٩٤).

(لا تقنطوا من رحمة الله) فرحمته وسعت كل شيء، ومهما عمل المذنب من المعاصي فرحمة الله تسع ذلك كله!

وكان من دعاء الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز - رحمه الله -: «اللهم إن لم أكن أهلاً أن أبلغ رحمتك، فإنّ رحمتك أهلٌ أن تبلغني، ورحمتك وسعت كل شيء، وأنا شيء، فلتسعني رحمتك يا أرحم الراحمين!»[1].

(إن الله يغفر الذنوب) واستعمل الفعل المضارع (يغفر) الذي يدل على الاستمرار للدلالة على أنه تعالى دائم الغفران.

(جميعاً) حتى لا ييأس مذنب، وحتى ينقطع الشك من قلوب المذنبين بأن هناك استثناءً لبعض الذنوب؛ بل رحمة الله تسعها جميعاً.

(إنه هو الغفور الرحيم) وهذه فيها ثلاثة مؤكدات كلها دلائلُ على سعة مغفرة الله ورحمته:

الأوَّل: استخدام أسلوب التأكيد بـ(إنَّ)، وهي حرفٌ للنصب والتوكيد؛ وفرق بين أن تقول: زيد يفعل كذا، وقولك: إن زيداً يفعل كذا.

الثاني: استخدام ضمير الفصل (هو) والذي يتم الكلام بدونه، لكنه لا يكون بمثل وجوده، لأن ذِكْره تأكيدٌ أنه تعالى الغافر للذنب

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٩٩.

بنفسه، فليس هناك وسائط بينه وبين خلقه، فبمجرَّد أن يمدَّ العبد يديه للسماء صادقاً مقبلاً بقلبه؛ فإن الله يغفر له ولو كانت ذنوبه عدد حبات الرمل أو قطرات البحر! وفي الحديث القدسي: «يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً؛ فاستغفروني أغفرْ لكم»[1].

ففعل الطلب (استغفروني) جاء جوابه (أغفرْ) بلا وساطات، فلم يقل: (فإني سوف أغفر لكم) أو (فسأغفر)؛ بل جاء الجواب مجرداً من كل ذلك ليُطمع عباده في مغفرته!

الثالث: استعمال اسم (الغفور) وهو اسم متضمن لصفة المغفرة، فهو تعالى يغفر لأن ذلك وصف دائم له. وكل أسماء الله تعالى أعلام وأوصاف، فهي أعلام باعتبار دلالتها على الذات، وأوصاف باعتبار ما دلت عليه من المعاني[2].

وكذلك الوصف بـ(الرحيم): زيادة في الإكرام والتفضل على عبده، فليس شأنه أنه يسامح العبد ويغفر له خطأه فحسب؛ بل فوق ذلك يكرمُه ويُنيلُه من فضله وإنعامه[3].

---

(١) رواه مسلم ٤/ ١٩٩٤ رقم (٢٥٧٧) عن أبي ذر ﷺ.

(٢) القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى لابن عثيمين، ص٨.

(٣) قال ابن جزي في التفريق بين العفو والمغفرة والرحمة: «ألفاظ متقاربة، وبينها من الفرق أن العفو ترك المؤاخذة بالذنب، والمغفرة تقتضي مع ذلك الستر، والرحمة تجمع ذلك مع التفضيل بالإنعام». انظر: تفسير ابن جزي ١/ ١٣٤.

ثانياً: ومن أساليب القرآن الكريم في بث روح الفأل لدى المذنبين التحذيرُ من القنوط واليأس من مغفرة الله ورحمته.

لقد بشّع الله حال القانطين اليائسين من جنته ورحمته، فوصفهم بالضالين وبالكافرين، قال تعالى: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ (الحجر: ٥٦)، وقال أيضاً: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (يوسف: ٨٧).

وبيّن تعالى أن الذين كفروا بالله هم من اليائسين من رحمته، وليس من جاء ربَّه مؤمناً تائباً، فقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَـِٔسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (العنكبوت: ٢٣).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أكبر الكبائر الشرك بالله لأن الله يقول: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (المائدة: ٧٢)، واليأس من روح الله...»[1].

بل جعل الله تعالى من أجلِّ صفات عباده المؤمنين أنهم يرجون رحمة الله، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢١٨)، وقال:

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ٢٥٢ رقم (١٣٠٢٣)، والبيهقي في شعب الإيمان ١/ ٤٦١ رقم (٢٨٧).

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾(الإسراء: ٥٧).

كل هذه الآيات وغيرها كثير جاء في الترغيب في الاتصاف بحسن الظن بالله، والتفاؤل برحمته، وتقبيح القنوط واليأس من عفوه ومغفرته.

ثالثاً: ومن الأساليب التي يعتمدها القرآن في بثِّ روح التفاؤل والطمع في رحمة الله إيرادُ نماذج للتائبين ممن قبلهم الله وتاب عليهم.

فهذا أبونا آدم زلَّ ووقع في الذنب حين أكل من الشجرة التي نهاه الله أن يأكل منها: ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾(طه: ١٢١)، ولكن ما الذي جرى بعد ذلك؟ ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾(البقرة: ٣٧).

وهذا موسى عليه السلام يقتل نفساً بالخطأ، فيعترف ويقول: ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾(القصص: ١٥)، فيستغفر الله ويتضرع إليه بقوله: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾، فكان الجواب: ﴿ فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾.

ومثله داود لما استعجل في الحكم بين الرجلين واستمع إلى أحدهما ولم يتمهّل حتى يدلي الآخر بحجته، فحكمَ فعاتبه الله،

﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ (ص: ٢٤). قال الله: ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ (ص: ٢٥).

وفي عهد رسول الله ﷺ بشَّر الله رسولَه وأصحابه الأطهار بأنه تاب عليهم: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ١١٧).

ثم لم تكن توبته فقط لهؤلاء الذين جاهدوا وصبروا على لأواء الحرب وساعة العسرة، بل وحتى الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزوة بلا عذر سوى الدعة وإيثار الراحة، وذلك ذنبٌ لا شك فيه، ومع ذلك فقد تاب الله عليهم رحمةً منه وفضلاً لـمّا تابوا وصدقوا في توبتهم: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (التوبة: ١١٨).

بل وحتى من خلطوا عملاً صالحاً بعمل سيئ، لما اعترفوا بذنبهم عفا الله عنهم وسامحهم: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ١٠٢).

قال ابن عباس والحسن البصري ومجاهد: «عسى من الله واجبة»[1].

رابعاً: ومن أساليب القرآن في بث التفاؤل في نفوس العاصين وعدم تقنيطهم من رحمة الله؛ وعدُهم بالخير والسعادة في الدارين.

ومن ذلك:

١) حصول محبة الله لهم، وهذا أعظم الخير وأساس كل نعيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢). فهو تعالى يرغِّب ذلك المذنب ليعود، ويُطمعه في هذا الفضل العظيم وهو حصول محبة الله.

وإذا ظفر العبد بمحبة الله فقد فاز الفوز العظيم! يقول النبي ﷺ: قال الله تعالى: «ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب مما افترضه عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه، وما ترددت في شيء ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأكره مساءته!»[2].

---

(١) انظر: تفسير السمعاني ٣/ ٢٢١، المحرر الوجيز ٢/ ١١٩، تفسير القرطبي ٨/ ٩١

(٢) رواه البخاري ٨/ ١٠٥ رقم (٦٥٠٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٢) المتاع الحسن في الدنيا وحصول الطمأنينة والسعادة.

إن من يُقبل على الله يجد في الدينا لذة وسعادة لا يجدها أهل القصور وأرباب الملايين! إنها سعادة الإيمان، ولذة القرب من الرحيم الرحمن.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة»[1].

ومن أقبل على الله متّعه من متاع الدنيا قبل أن يوافيه يوم القيامة، قال عز وجل: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ ﴾ (هود: ٣).

ولهذا كان الأنبياء عليهم السلام يرغِّبون أقوامهم في الإقلاع عما هم فيه من الضلال بأن الله سيعوّضهم من خير الدنيا قبل خيرِ ونعيمِ الآخرة!

فهذا نوح عليه السلام يرغب قومه فيقول: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ (نوح: ١٠-١٢)

وهود عليه السلام ينادي قومه نداء المشفق عليهم المريدِ الخيرَ لهم، فيقول: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ

(١) المستدرك على فتاوى ابن تيمية ١/ ١٥٣.

عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ (هود: ٥٢).

إن الخيرَ كلَّ الخيرِ في لزوم أمر الله وسلوك طريقه القويم، ومن كان كذلك فهو السعيد حقاً: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾(الأعراف: ٩٦).

ألا إن سعادة القلب وانشراح الصدر لا يكون بالإسراف في الشهوات، والرتوع في حظيرة المعصية؛ وإنما هو بالأنس بالله والرضا عنه فيما كَتبَ وقدَّر، وهذا لا يحصل إلا للمؤمنين الصادقين. يقول الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(النحل: ٩٧).

قال ابن القيم: «إن طِيبَ النفس، وسرورَ القلب، وفرحَه ولذّتَه وابتهاجَه وطمأنينته وانشراحه ونوره ورحمته وعافيته مِن ترك الشهوات الممرضة والشبهات الباطلة؛ هو النعيم على الحقيقة، ولا نسبة لنعيم البدن إليه»[1].

٣) ومن أعظم الأساليب التي يشحذ بها القرآن نفوس العاصين ليقبلوا على الله، ولا يقنطوا من رحمته، ويبعث في قلوبهم

(١) الجواب الكافي لابن القيم، صـ ١٢٠.

الأمل في إصلاح حالهم ما ينتظرهم من الجزاء الأوفى حين يلقون ربهم، وذلك هو نعيم الآخرة الذي يتقازم عنده كلُّ نعيم، ويسهل لأجله كل صعب!

يقول الله تعالى منادياً عباده للرجوع إليه، مرغِّباً لهم فيما عنده: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (التحريم: ٨).

وحين عقد الله الصفقة مع المؤمنين فاشترى منهم أنفسهم ووهبهم الجنة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾(التوبة:١١١)؛ بيّن بعدها أن هذه الجنة لمن اتصف بصفات كثيرة كان أولها (التائبون العابدون الحامدون).

فالتائبون إذن هم أحرى الناس بدخولهم جنة الله والتنعم فيها، وكذلك كل من وقع في فاحشة أو كبيرة فأقبل إلى الله ولم يصرّ على ما فعل فجزاؤهم: ﴿ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٦).

فنسأل الله أن يجعلنا من عباده التائبين، ويمنّ علينا برحمته ومغفرته والعتق من ناره. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

فهرس المصادر والمراجع

١) إحياء علوم الدين، الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي، (د.ط)، بيروت، دار المعرفة (د.ت).

٢) الأدب المفرد، البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط٣، بيروت، دار البشائر الإسلامية، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٣) الاستذكار، ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمري، تحقيق: سالم عطا، محمد علي معوض، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٤) البداية والنهاية، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري، (د.ط)، بيروت، دار الفكر، (د. م)، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

٥) تاريخ ابن الوردي، ابن الوردي، عمر بن مظفر بن عمر، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٦) تاريخ دمشق، ابن عساكر علي بن الحسن، تحقيق: عمر بن غرامة العمروي، (د.ط)، بيروت، دار الفكر، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٧) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، أبو القاسم محمد بن أحمد، تحقيق: محمد سالم هاشم، ط١، بيروت، دار الكتب

العلمية، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

٨) تفسير ابن أبي حاتم، ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن الرازي، تحقيق: أسعد محمد الطيب،(د.ط) صيدا، المكتبة العصرية، (د.ت).

٩) تفسير روح البيان، الخلوتي إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي (د.ط)، بيروت، دار إحياء التراث العربي (د.ت).

١٠) تفسير روح البيان، الخلوتي إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي (د.ط)، بيروت، دار إحياء التراث العربي (د.ت).

١١) تفسير القرآن، السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس، ط١، الرياض، دار الوطن، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

١٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط٢، الرياض، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٣) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر تحقيق: مصطفى

العلوي ومحمد البكري، القاهرة، مؤسسة قرطبة، ١٤١١هـ- ١٩٩١م.

١٤) تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة، الكناني، أبو الحسن علي بن محمد بن عرّاق، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف وآخرين (د.ط)، بيروت، دار الكتب العلمية (د.ت).

١٥) جامع الأصول في أحاديث الرسول، ابن الأثير، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، ط٢، القاهرة، مكتبة الحلواني - مطبعة الملاح، ١٣٩١هـ -١٩٧١م.

١٦) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

١٧) الجامع الصحيح سنن الترمذي، الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى السلمي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، ط٢، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٤م.

١٨) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط٢، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

١٩) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط١، بيروت، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ.

٢٠) الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، النهرواني الجريري أبو الفرج بن زكريا، تحقيق: إحسان عباس، ط١، بيروت، دار عالم الكتب، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٢١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب، ط١، المغرب، دار المعرفة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٢٢) حدائق الأنوار ومطالع الأسرار، الحضرمي، محمد بن عمر بحرق، تحقيق: محمد غسان نصوح عزقول، (د.ط) بيروت، دار الحاوي، ١٩٩٨م.

٢٣) حسن السلوك الحافظ دولة الملوك، الموصلي الشافعي محمد بن محمد بن عبد الكريم، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، (د.ط)، الرياض، دار الوطن، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.

٢٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله، ط٤، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ.

٢٥) خزانة الأدب وغاية الأرب، الأزراري، أبو بكر علي بن عبد الله الحموي، تحقيق: عصام شعيتو، ط١، بيروت، دار مكتبة الهلال، ١٩٨٧م.

٢٦) ديوان ابن الرومي، شرح: أحمد حسن بسج، ط٣، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

٢٧) ديوان لبيد بن ربيعة، اعتنى به: حمدو طماس، ط١، بيروت، دار المعرفة، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٢٨) ديوان المتنبي بشرح العكبري، العكبري أبو البقاء، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، (د.ط) بيروت، دار المعرفة (د.ت).

٢٩) زهر الآداب وثمر الألباب، القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري، تحقيق: يوسف علي طويل، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية - ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٣٠) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها، الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، ط١، الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع (د.ت).

٣١) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، الألباني، أبو عبدالرحمن، محمد ناصر الدين بن الحاج نوح، ط١، الرياض، دار المعارف، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٣٢) السنن الكبرى، النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، تحقيق: حسن عبدالمنعم شلبي، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٣٣) شذا العَرف في فن الصرف، الحملاوي، أحمد بن محمد، تحقيق: نصر الله عبد الرحمن نصر الله (د.ط)، الرياض، مكتبة الرشد، (د.ت).

٣٤) شرح السنة، البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء، تحقيق: شعيب الأرنـؤوط، محمد زهير الشاويش، ط٢، دمشق، بيروت المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٣٥) شعب الإيمان، البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد وآخرين، ط١، الرياض، مكتبة الرشد، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٣٦) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم الدينوري، تحقيق: أحمد شاكر، ط٢، القاهرة، دار المعارف، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م.

٣٧) صحيح الترغيب والترهيب، الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، الرياض، ط٥، الرياض، مكتبة المعارف (د.ت).

٣٨) صحيح الترغيب والترهيب، الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، ط٥، الرياض، مكتبة المعارف، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م. ط١، بغداد، مطبعة العاني، ١٣٩٧هـ.

٣٩) عمل اليوم والليلة، ابن السُّنِّي، أحمد بن محمد بن إسحاق الدِّيْنَوَرِيُّ، تحقيق: كوثر البرني، جدة/ بيروت، دار القبلة للثقافة الإسلامية ومؤسسة علوم القرآن (د.ت).

٤٠) غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، السفاريني، محمد بن أحمد بن سالم الحنبلي، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، ط٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٤١) غريب الحديث، ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، تحقيق: عبد الله الجبوري.

٤٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.

٤٣) الفردوس بمأثور الخطاب، الديلمي، أبو شجاع شيرويه بن شهردار الهمذاني الملقب إلكيا، تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول (د.ط)، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٤٤) القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، العثيمين، محمد بن صالح بن محمد، ط٣، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.

٤٥) قوت القلوب في معاملة المحبوب، أبو طالب المكي، محمد بن علي بن عطية الحارثي، تحقيق: عاصم إبراهيم الكيالي، ط٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٦هـ -٢٠٠٥م.

٤٦) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط١، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٤٧) الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان العبسي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، ط١، الرياض، مكتبة الرشد، ١٤٠٩هـ.

٤٨) كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، العجلوني، إسماعيل بن محمد (د.ط)، القاهرة، مكتبة القدسي، ١٣٥١هـ.

٤٩) الكشف والبيان، الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري، تحقيق: أبو محمد بن عاشور، ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٥٠) الكشكول، العاملي، بهاء الدين محمد بن حسين، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ -١٩٩٨م.

٥١) اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، تحقيق: أبي عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٥٢) لسان العرب، ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي، ط٣، بيروت، دار صادر، ١٤١٤هـ.

٥٣) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر، تحقيق: عبدالله الدرويش، بيروت، دار الفكر، ١٤١٢هـ - ١٩٩٣م.

٥٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد

الشافي محمد، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٥٥) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٥٦) المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، جمع: محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، ط١، (د. م)، ١٤١٨هـ.

٥٧) مسند أبي يعلى، أبو يعلى، أحمد بن علي بن المثنى الموصلي التميمي، تحقيق: حسين سليم أسد، ط١، دمشق، دار المأمون للتراث، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٥٨) مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرين، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٥٩) مسند الشهاب، أبو عبد الله القضاعي محمد بن سلامة بن جعفر، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط الثانية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

٦٠) المسند الصحيح المختصر، مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (د.ط)، بيروت، دار إحياء التراث العربي (د.ت).

٦١) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي أحمد بن محمد بن علي المقري، ط٥، القاهرة، المطبعة الأميرية ١٣٤٠هـ - ١٩٢٢م.

٦٢) معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ.

٦٣) المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر ـ محمد النجار، تحقيق: مجمع اللغة العربية، (د.ط)، دار الدعوة (د.م) (د.ت).

٦٤) الموضوعات، ابن الجوزي، جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، ط١، المدينة المنورة، المكتبة السلفية، ١٩٦٦هـ - ١٩٦٨م.

٦٥) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، التلمساني أحمد بن محمد المقري، تحقيق: إحسان عباس، (د.ط) بيروت، دار صادر، ١٣٨٨هـ.

٦٦) الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه، القيسي أبو محمد مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار، تحقيق: الشاهد البوشيخي وآخرين، ط١، الشارقة، (د.ن) ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

فهرس المحتويات

العنوان	الصفحة
مقدمة	٥
المبحث الأول: معنى التفاؤل ومشروعيته وأهميته	٩
المطلب الأول: معنى التفاؤل	١١
الفرع الأول: معنى التفاؤل في اللغة	١١
الفرع الثاني: معنى التفاؤل في الاصطلاح	١٢
المطلب الثاني: مشروعية التفاؤل	١٣
المطلب الثالث: أهمية التفاؤل	١٧
المبحث الثاني: أسلوب القرآن في تربية النفوس على التفاؤل	٢٩
المطلب الأول: إيراد نماذج من تفاؤل الصالحين	٣٢
المطلب الثاني: إشاعة التفاؤل في وقت الأزمات والمعضلات	٤٤
الفرع الأول: التفاؤل في حال تكالب الأعداء على الأمة وقلة المعين	٤٥
الفرع الثاني: التفاؤل في حال الفقر وضيق العيش	٥٥

الفرع الثالث: التفاؤل عند فقد الأولاد وموتهم	٦٦
الفرع الرابع: التفاؤل عند عدم الوفاق الزوجي	٨٠
الفرع الخامس: التفاؤل بمغفرة الله وعدم اليأس من رحمته	٨٢
فهرس المصادر والمراجع	٩٥
فهرس المحتويات	١٠٩